المبحث الثـانى

النظرة الوضعية للمـرأة عبر التاريخ

ولما كانت المرأة قد وجدت منذ أول الخليقة ، وخطت خطواتها مع الرجل فى اعمار الكون • وهذا ما لم يستطع الوضعيون انكـاره ، لما كانت المرأة كذلك فقد أنزلها الرجل منزلة توافق تصوره لها ولدورها واختلفت هذه المنزلة من عصر لآخر ومن ثقافة الى أخرى ومن نظام سماوى الى نظام وضعى ، بل ومن نظام وضعى الى غيره مما وضـع المخلوق الانسانى وخط قلمه وسطر ما حدث به الفكر البشرى ••••

ولا يخفى على القارىء أن ما كتبه الوضعيون عن المرأة ووضعها فى تاريخ البشرية الأول انما هو لون من التخمين والتصور ، وكل يمكنه أن يتصور ما يحلو له ، ويوافق احساسه بما حوله •

ولا يستطيع أحد انكار أن التصور النفسى لكل كاتب له أثره على كل مـا يسـطر خصوصا اذا لم يكن هذا الكاتب واقعا تحت معايير موضوعية أو مقاييس مقننة عن طريق أمور ملزمة ومتعارف عليها •

ومن هنا فان ما سطره الوضعيون عن المرأة عبر التاريخ القديم انما هو لون من التصـور بكل ما للكلمة من أبعـاد وما تقع تحته من مؤثرات فالوضعيون الذين يرون وجود فروق تكوينية بين كل من الرجل والمرأة يضعون هذه الرؤية أساسا لتصورهم للمرأة ودورها عبر التاريخ فهى عندهم مخلوق تابع للرجل •••

بل ان هذه التبعية فى رأيهم جرت على المرأة ويلات تلو ويـلات خصوصا بعد كل غارة من الغارات أو حرب من الحروب فالمرأة لا حظ لها من ذلك كله الا الوقوع فى الأسر ، فتصبح غنيمة للمنتصر يسوقها على حد تعبيرهم ـــ سوق الأغنام ـــ

وهؤلاء الوضعيون أصحاب هذا المنطق وضعوا قانونا مسلما عندهم مؤداه : أن كل ما يرفع قدر الرجال يخفض من قدر النساء .

ولقد حاول بعض الكتاب أن يخفف على المرأة ما يصورها به غيره . فذكر هؤلاء أن المرأة كانت تشارك الرجل المنزلة ، وتساويه فى نظرة المجتمع اليها مساواة تامة ، وكان لها من الحقوق مثل ما للرجل وتحملت من الأعباء ما تحمل .

وضرب هؤلاء دليلا على مقولتهم بما كان للمرأة فى العراق قديما قبل عهد موسى عليه السلام وقبل عهد حمورابى .

فكانت المرأة تدير أمورها التجارية وتباشر مسئوليتها فى الادارة والقضاء ، ووضع القوانين والتعليم وابرام الاتفاقات التجارية وغير ذلك من الأعمال التى يباشرها الرجال .

كما كان لها من الحقوق ما للرجل فى مجال خدمة الهياكل وأمور الكهانة وغيرها . وقد حدث التاريخ بما كان لكاهنات بابل من شأن وما كان للمرأة الفرعونية فى مصر من مكانة وحق التملك ومباشرة كثير من الأعمال ... ولا يخفى أن واحدة من هؤلاء قد تولت عرش مصر لفترة ، فلقد حكمت حتشبسوت مصر وبنيت لها المعابد ودانت لها الجيوش ، وسلم لها زمام السلطة فى بلد عريق له تاريخه وحكامه ورجاله ...

وما ذكره هؤلاء الذين حاولوا التلطف بالمرأة وتخفيف وقع أقلام الكتاب عليها مما تحدثت به أقلامهم عن بنى جنسها عبر التاريخ حتى ما ذكره هؤلاء أنكره آخرون .

فقالوا ان ذلك كله أساطير ملفقة ، بل ان هؤلاء اللائى وجدن فى الواقع فى ملابس النساء ما كانوا الا رجالا متخفين فى ملابس النساء ...

يا لقسوة هؤلاء على المرأة المولود الوئود ...

لقد شاهدت بنفسى معابد حتشبسوت فى صعيد مصر وطفت بها ودخلت حجراتها ومكان جلوسها للحكم ، بل والمكان الذى قتلت فيه انها كلها تدل على أن حتشبسوت امرأة فى الحقيقة والواقع ولم تكن رجلا يلبس ملابس امرأة ...

أما المرأة فى اليونان فقالوا انها لم تكن لها حرية ولم يعرف عن المرأة قبل ميلاد المسيح — عليه السلام — بألف سنة سوى أنها لزمت بيتها فكان هو مملكتها ...

ويغمز هؤلاء المرأة ، فيقولون : ان مملكة المرأة هى بيتها ، فغلب فيهن الجهل والغباوة .. الا أن بنات الفن تمتعن بحرية لم تبح لغيرهن يا لبنات الفن هؤلاء .. اللائى أخذن من الكتاب ما ليس لهن بحق ... بل ان هؤلاء يرجع ما وجد عند بعض النساء فى ذلك العصر من سلوك منضبط قالوا انذلك ناتج عن الجهل ... والخضوع للرجل خضوعا مطلقا .

وصوروا الرجل بصورة ذلك الذى تخضع له المرأة لدرجة أنه كان يتصرف فى أطفالها . فيأخذ طفلته ويتركها فى الشارع أو على قمة جبل حتى تموت ... كل ذلك ولا تحرك امرأته ساكنا فى الدفاع عن طفلتها ....

بل إن البعض يحاول أن يلصق تهمة التأخر بالمرأة ، فيرجعون تأخر أوربا فى القديم الى أن النساء كن يحملن بعد الحروب خادمات الى البيوت وكانوا يربون الأطفال تربية تحمل الى مفاهيم الأطفال الخرافات الأسطورية مما أفسد عقول الأطفال وأخر عصر النهضة .

هذه نظرة اجمالية لحال المرأة ووضعها . وفيما يلى أذكر بشىء من التفصيل المختصر وضع المرأة عند الأقدمين .

المطلب الأول :

« فى مصر القـديمة »

عنى المؤرخون بالحضـارة المصرية القديمة عناية فائقـة فقـاموا بدراسة هذه الحضارة من كل نواحيها البشرية الانسانية والمعـمارية الفنية وساعدهم على ذلك الوثائق الكثيرة التى حفلت وسجلت كثـيرا مما كان للمصريين القدماء من عادات وتقاليد وحروب وانتصـارات ونشاطات زراعية ودينية وغير ذلك .

كما أن المصرى القديم قد سجل على جدران المعابد وحوائطهـا جانبـا كبيرا مما كان لهم من عادات وتقاليد وسـلوكيات فى شـتى المجالات حربية وزراعية وفنية وأسرية وما الى ذلك وحفلت نقـوش المعابد التى لاتزال تحتفظ بألوانها الرائعة الزاهية حتى الآن ، حفلت بصور كثيرة لشتى مجـالات النشـاط وللمرأة فى أوضـاعها ومهامها ، وللكهنة وطقوسهم ، ولا تخلو مقبرة أو معبد أو مسلة أو غير ذلك من التماثيل التى خلفها قدماء المصريين وراءهم ، لا يخلو شىء من ذلك عن نقوش وصور وكتابات تسجل حيـاتهم ونشاطهم اليـومى وأعيادهم واحتفالاتهم .

وفى الجانب الذى يخصنا هنا وهو جانب وضـع المرأة عنـدهم ورؤيتهم لها ومنزلتها بين أبناء قومها ، فاننا نجد أغلب المؤرخين يكادون يجمعون على أن المرأة فى مصر القديمة كان لها وضع اجتماعى متميز ، فانها ان لم تكن قد زادت عن الرجل فانها بالقطع لم تقل عنه فى شتى مناحى حياتها وممارستها لحقوقها ومشاركتها للرجل فى كل ما له ومـا عليـه ...

فقد سطر هيرودوتس فيما كتب عن مصر والمرأة المصرية القـديمة

ما يفصح عما كان للمرأة من دور تشارك فيه الرجل فى كل مناحى الحياة ولذا فانها كانت تخرج من المنزل لقضاء حاجياتها متى شاءت ذلك وتعود الى منزلها أيضا متى شاءت •

فقد كانت أما ، وزوجة ، تقوم بكل أدوار الأم والزوجة داخل البيت وخارجه ، كما كانت تقوم خارج منزلها بأعمال التجارة والزراعة(١) •

وقد ذكر المؤرخ الفرنسى الكسندر موريى فيما كتبه عن المرأة فى مصر القديمة أنها لم تكن كما مهملا وانما كان لها وضعها المتميز بين أفراد أسرتها وكانت لها أعمالها الخاصة بها والتى تستقل بها عن الرجل فقد كانت تساويه فى كل شئونها •

ويرى أن هذه النظرة التى نظرها المصريون القدماء للمرأة نظرة مميزة خالفوا فيها ما كانت عليه الأمم الأخرى قبل ذلك وبعده •

فالمرأة عند المصريين من أهم عوامل البقاء والتكاثر والتماسك فى الأمة •

---

(١) يقول هيرودوتس : ان مايجرى فى مصر يختلف من جميع الوجوه عما يجرى فى الاقطار الأخرى ، وعادات المصريين لاتشبه فى شىء عادات الشعوب والأمم المجاورة لهم شرقا وغربا ، فان المرأة المصرية تخرج من منزلها متى شاءت وتعود اليه متى شاءت ، انها تذهب الى الاسواق وتتاجر وتقضى اعمالا لايقضيها عند الشعوب الأخرى غير الرجال ، وبينما نرى الرجل فى مختلف الاقطار يتحمل وحده مسئولية السهر على راحة الأسرة وسد حاجاتها ، فاننا نرى عكس ذلك فى مصر ، حيث الرجل قابع فى عقر داره يحيك الأقمشة ويعد الطعام ، بينما المرأة تقضى خارج الدار اعمالها وشؤونها ، وهذا مايجعل مصر عظيمة بين الأمم نقلا عن عمر كحالة ـ المرأة فى القديم والحديث ص ١١٣ •

ومن هنا فان الالهة قد أغدقت على المرأة نعما ، وخصتها بامتيازات ورعتها بعناية حرم منها الرجل ، فمكانتها فى الأسرة كمكانته بل أفضل منها ومركزها كمركزه بل أرفع منه ، ورأيها يجب أن يؤخذ فى الشئون المنزلية والاجتماعية وغيرها كرأيه ، بل قبل رأيه •

الى هذا الحد يكتبون عن المرأة فى مصر القديمة •

بل وأكثر فان منهم من ذكر أن ظاهرة النبـــوة كانت مما يؤذن به للنساء فى مصر ، ولكنهن حظرن عليهن الكاهنية الى عصر بطليموس •

ان هذا القول الذى جاء فى كتاب السنن القويم فى تفسير أسفار العليم ونقله الى العربية الأستاذ ابراهيم الحورانى(١) قول يحتاج الى مناقشـــة •••

ويا حبـــذا لو بدأناها بســـؤال عن مدلول النبوة التى وردت فى حديثـــه •••

اذا كان يعنى بها أن تكـــن من قبل الفرعون بممارسة تبليغ بعض التعاليم الدينية وتعليم غـــيرها من الطقوس والعبـــادة فهذا يمكن أن نسلم به له •

وهو ما يرجح أنه المقصود ، لأن النبوة بالمفهوم الدينى السماوى هى وحى من الله تعالى ان يصطفى من خلقه ، وعليه فلابد أن يكون الموحى اليه مؤمنا بالله الواحد الأحد ••• وهذا مالم يرد فى تاريخ مصر القديمة أن قامت امرأة تدعو الى عبادة الله الواحد الأحد •••

---

(١) نقلا عن عمر كحالة ص ١١٢ ؛

وان كان قد حدث مثل ذلك من بعض الفراعنة الذين دعـوا الى التوحيد • ولكنه لم يكن منهم امرأة •••

كما يؤكد أن المقصود بالنبوة غير ما هو متعارف عليه فى عـلم الأديان • أن النبوة أعلا منزلة من الكاهنيـة ، واذا كانت الكاهنيـة محظورة على المرأة فمن باب أولى ما هو أعلى منها فى نظر الناس بل وفى واقع الأمر ••

ويؤكد أن المقصود بالنبوة المشار اليها فى مصر القديمـة والتى كانت مما يؤذن به للنساء هى مباشرة الدعـوة الى مذهب الفرعـون وعباداته أنه قد عرف فى مصر القديمة دخول النساء الى المعبد(١) ••• وان كان البعض قد صور أن هذا الدخول كان مقصودا به البعـد عن

---

(١) لايخفى أن فرعون الذى حدثنا عنه القـرآن الـكريم قد قال للناس « أنا ربكم الاعلى » •

فقد جعـل من نفسه الها ، وهذا الاله لابد له ممن يدعـون له ويدينون له بما يدعى •

وعليه فاذا أريد بالنبوة ـ التى ذكرها بعض المؤرخين هنا ـ قيام بعض النساء بالدعوة الى مايزعمه هذا الفرعون سواء أكان بتكليف منه أو تطوعا ـ من البعض الذين يحلـو لهـم أن يكونوا ملكيين أكثـر من الملك نفسه ـ اذا أريد بالنبـوة التى تحدث المؤرخـون عنهـا انه كان يسمح للنساء بالدعوة الى مايدعيه الفـرعون فهـذا أمر طبيعى طبقـا لمـا ذكرنا •••

بل ان من النساء من وصـفت بالالوهية وليس ببعيد ماقيـل عن ايزيس وأوزوريس • وغيرهما وسيأتى ذكر شىء من قصتهما •••

الرذيلة والندم على ما كان ... وان كن قد وجدن داخل المعابد من الرجال ما لم يمارسه أحد خارجها(١) .

ويربط بعض الكتاب بين ما كان للمرأة فى مصر القديمة من حرية ومكانة اجتماعية وبين ما كان لها من علاقات بالرجال فى نواحى الميل القلبى والاعلان عن ذلك وحرية اختيار الزوج . بل قالوا أن اختيارها للزوج كان اختيارا صريحا لا يملك أحد أن يراجعها فيه فهى وحدها التى تقرر وتختار .

وهذا ما حفلت به أوراق البردى التى وجدت من بين ما خلفه المصريون القدماء ، قد تحدث المصريون وسطروا فى هذه الأوراق أناشيد الحب وقصصه ، بل وان من هذه الأناشيد ما كان يوضع فى المقابر الخاصة

---

(١) ليس هذا الامر ببعيد عن الواقع وليس بغريب عن الذين يتابعون مايحدث فى المعابد قديما وحديثا .

وليس ببعيد أيضا ماحدث به لوثر عما وقع فيه رجالات الكنيسة البابوية وما ارتكب داخل الكنائس فى عصره من أمور سجلها التاريخ .

ولا يفوتنى أن أشير الى مدى مافى الاسلام من نقاء فليس فيه معابد أو أديرة أو كنائس يقصدها النساء ويترهبن فيها . فلا رهبانية فى الاسلام .

كما أن الاسلام لم يوجب على المرأة الصلاة فى المسجد بل أمرها بأن تقر فى بيتها ... ومن هنا لم يفرض عليها صلاة الجمعة ... وكذا لم يأمرها بما يلزم لأدائه أن يتفرغ العباد للعبادة فى المساجد كالاعتكاف ... بل لم يفرض عليها الحج اذا عدمت محرما يخرج معها واذا وجدته فانه لابد وأن تأمن أيضا على نفسها مما قد يحدث فى السفر ، اذا لم يتوفر لها ذلك فليس عليها حج مع أن الحج أحد أركان الاسلام الخمسة ... يراجع ما ذكرته فى هذا الخصوص في مقدمة كتاب دراسات في أحكام الأسرة ـ الزواج ـ

بالملوك وغيرهم ممن كانت لهم قصص غرام حتى اذا عادت الحياة اليهم فى قبورهم وجدوا بجانبهم ما يحدثهم ويذكرهم بمن أحبوا طبقا للاعتقاد السائد عند المصريين القدماء ..

ويذكر البعض أن ما عثر عليه من آثار مصرية قديمة وما هو محفوظ فى متحف اللوفر بباريس ، يؤكد ما كان للمرأة من منزلة تتساوى فيها مع الرجل فكانت الزوجة بجوار زوجها على كرسى واحد ويقال لها : يا رئيسة المنزل .

وفى القصيدة المسماة أسجاع الغرام — وهى من أقدم آثار الأدب فى مصر ، تقول المرأة لزوجها : « اتخذنى رئيسة منزلك .. »

كما شاركت فى عقد زواجها على الرجل فقد جاء أنها كانت تقول له فى العقد « اتخذنى امرأة » أو « اجعلنى امرأتك » فكان يرد عليها بقوله « جعلتك زوجتى » أو « قد اتخذتك امرأة » الى غير ذلك .

وذكر الكتاب أن البنت فى مصر القديمة تقوم مقام الابن ، ومن مات ولم يترك الا اناثا كان فى الآخرة كمن لم يترك الا ذكورا .

وكان للمرأة مثل نصيب الرجل فى الميراث فكانت تأخذ نصف التركة ويأخذ أخوها النصف . مثله مثلها ...

ويقول صاحب محاسن آثار الأولين فيما للنساء وما عليهن فى قوانين قدماء المصريين : وبالجملة فقد كانت المرأة فى مصر القديمة تساوى الرجل . وذكر بعضهم أنها كانت أعلى من الرجل مقاما حسب ما ورد فى كتب اليونان من رفعتها على الرجل وتسلطها فى المنزل (١) .

---

(١) عمر كحالة ص ١١٩ .

وقد انطلى ما ذكره المؤرخـون على بعض الكتاب المحدثين فكتب يقول : أجل المصريون المرأة وآمنوا بأنها مخلوق أرقى من الرجل ، وأقدر منه على حل ألغاز الحياة والخروج من مآزقها الضيقة ، وأنها أبعد منه نظرا وأثقب أفكارا •

ويتحدث عن خرافة — على حد تعبيره خلفها المصريون القدماء — وهى قصة « أوزوريس » هذا الذى قتله أخوه حقدا عليه ، وما قامت به الآلهة ايزيس — على حد تعبيره أيضا — بعد أن أحبته وقامت بجمع أجزاء جسمه ، الأمر الذى نجم عنه وجود الاله « أوريس » الصغير الذى انتقم لأبيه من عمه « ست » اله الشر •

ثم يقول : ولما رأى المصريون أن الفضل فى احياء المهم يرجع الى أخته قدسوا هذه الأخت وقدسوا من أجلها كل امرأة فى الوجود ، ثم نسبوا الاله «أوريس» الى أمه التى كانت السبب الأول فى وجوده ، ثم أصبح ذلك قاعدة عامة ينسب الولد الى أمه ويأخذ اسمها ويطرح اسم أبيه فى زوايا الاهمال (١) •

وقد ذكر صاحب هذه المقولة قضايا جعل منها مسلمات ، أولها ما ذكره أن المرأة مخلوق أرقى من الرجل ، ولم يقم دليلا على ما ذكره هناء •• فلم يجر أى احصاء قديما أو حديثا ولم يستند الى جمع معلومات قطعية أو حتى قريبة من المؤكدة •••

ثم من قال ان المصريين قدسوا كل امرأة فى الوجود ••• ألم يقرأ محدثنا عما فعله فرعون قديما بكثير من النساء اللائى أضر بهن أيما ضرر

---

(١) تراجع السياسية الاسبوعية العـدد ١٩٦ سنة ١٩٢٩م الاسـتاذ محمد غـلاب .

ان ذلك القول قول يقينى لأن القرآن هو الذى حدثنا به وليس مؤرخا من المؤرخين الذين يكتبون ما يحلو لهم أو يوافق أهواءهم .

لقد ذكر لنا القرآن ما فعله فرعون هذا بالرجال والنساء ، واذا كان الرجال عند المؤلف أحط شأنا من النساء ولذا يحق لفرعون أن يفعل بهم ما يشاء دون أن يلام ... فلم فعل فرعون ما فعله بالنساء اللائى يقول كاتب المقال الذى معنا . أنهن مقدسات كلهن . وأكد بكلمة « كل » .

لقد حدثنا القرآن الكريم عما فعله فرعون ... فقال الله تعالى : « ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم ... »

ان ما ذكره الكتاب والمؤرخون عما كان للمرأة من مكانة فى مصر القديمة يشم منه رائحة مؤامرة ، وتحريض ، وايعاز للمرأة المصرية بالثورة على التقاليد والتعاليم العربية والاسلامية التى حفظتها من أن تكون فى متناول الأيدى تعبث بها متى شاءت وكيف تشاء .

ان من يقلب أوراق السياسة الأسبوعية يتأكد له ما توقعناه ، فقد كتب محمد البارودى ما يكشف الهدف مما قيل وبل يؤكد أن ما سطره هؤلاء وأولئك قد قصد به تحريض المرأة لتخرج عن وقارها وهندامها وتسقط ما يحول بينهم وبينها ، بدعوى التحضر المزعوم .

يقول فيما كتب : أليس مما يثير الدهشة أن المرأة عند قدماء المصريين منذ نحو الستين قرنا ، كانت تتمتع بمنزلة وحقوق تحسدها عليها مصرية اليوم .

ظل هذا مركزها حتى حكم بطليموس مصر ، فألقى بالمرأة فى قبضة الرجل وسلبها أغلب حقوقها .

لقد وضح الهدف الذى استهدفه هؤلاء وأولئك مما كتبوه وذكروا فيه ما لم يقم عليه دليل •

بل ان الدليل المادى يكذب ما قالوه ، فمن يذهب الى معابد الأقصر مثلا يجد كل تماثيل الفراعنة تماثيل عملاقة ، ويجد امرأة كل فرعون قد نحتت بجوار قدم الفرعون ، لم يصل نحتها الى ركبته ••• واذا وجدت تماثيل لامرأة بصورة تماثل الفرعون فانها تكون لامرأة قد حكمت مثل الفرعون تماما ورفعوها الى عرش الحكم وكرسى الفرعونية،ومن هؤلاء حتشبسوت ، ونفرتيتى ••••

بل وعلى معابد الأقصر وعلى وجه الخصوص معبد الكرنك ، فى غرفة الله التناسل والانجاب ما يستحى القلم أن يسطره للقارىء مما فعلته النساء والفرعون يحـارب بعيدا ومن أجل ذلك حبسهن وعذبهن ونكل بهن •

اذا كانت أوراق البردى قد وجد فيها حديث عن امرأة ما فانهـا ولاشك امرأة الفرعون ، وهى وان كان لها منزلة ومكانة فالأمر لاينسحب على كل نساء مصر القديمة اللائى عانين مما فعله فرعون بهن وبأبنائهن وبأزواجهن •••

وليس بخاف ما كان من فرعون موسى ـــ على نبى الله السلام ـــ فقد أمر ذلك الفرعون بأن يباعد بين النساء وبين أزواجهن ، فلا يأتى رجل زوجه • وان أتاها وأنجبت فمصير الابن معروف •••

ولم ينج سوى موسى عليه السلام لأن عين الله ترعاه •••

ويحدثنا القرآن الكريم عما كان من هذا الفرعون وما أحاط الله به موسى عليه السلام ، وما أراده الله تعالى من تخليص المستضعفين من قبضة فرعون ، فيقـول الله تعالى : « ••• نتلوا عليك من نبأ موسى

وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » (١) .

« ان هذا لهو القصص الحق » أما الذى يقال غير ذلك فلا نصيب له من واقع يذكر ، ان ما يقال غير ما ذكره القرآن ما هو الا من خلق أولئك الذين يريدون به اغواء اللائى تستغوين الغواية ...

انهم يحاولون تصوير المرأة المصرية القديمة بصورة ما عليه نساء الغرب اليوم ، الأمر الذى حدا ببعضهم الى القول : كانت الابنة المصرية اذا باغت تصبح مستقلة بأمرها ، حتى اذا أرادت أن تتزوج يتوقف ذلك على رضى الزوجين فقط ، وكن المصريون قليلى الغيرة ، كثيرى الزواج ، لا يهتمون بكتابة العقود متى اتفقا على القران (٢) .

أيها القارىء الكريم ما رأيك أنت فيما هو مسطر هنا ، أهو عن المرأة المصرية والفتاة المصرية القديمة ، أم هو وصف لما عليه المرأة والفتاة فى العالم الغربى (٣) ...

---

(١) الآيات ٣ ـ ٨ من سورة القصص .

(٢) يراجع مانقله عمر كحالة ص ١٢٥ وما بعدها عن كل من هيرودوتس ، جميل بيهم ، من كتاب المرأة فى التاريخ والشرائع :

(٣) جاء فى جريدة الاهرام القاهرية بتاريخ ١٩٦٧/٣/٢٣م مايلى: أعلن مليونير امريكى اسمه وليم هنرى أمام محكمة توكسون فى

ولاية أريزونا ، أنه استعار زوجة صديق له المانى مقابل ٣٠٠٠ دولار يدفعها شهريا ، اضطر المليونير أن يذكر هذه الحقيقة عندما طلبت منه الزوجة أن يتزوجها بعد طلاقها من زوجها الالمانى ٠

قال المليونير أمام المحكمة : ان العقد الذى حرره مع زوجها لم ينص على الزواج ٠

كما جاء فى نفس الجريدة بتاريخ ١٩٦٧/٢/٢٦ م مايلى :

انتقلت زوجة برازيلية فاتنة من زوج الى آخر على أثر اتفاق ودى تسيطر عليه روح التفاهم وذلك مقابل سداد دين قدره ٢٫٥ مليون كروزبدو برازيلى « ٢٥٠ جنيه استرلينى كان دينا على زوج الفاتنة فلما يئس من سداده عرض على صاحب الدين أن يعطيه زوجته مقابل الدين ثم دخلا فى مفاوضات أسفرت عن الاتفاق الودى ٠

كما نشرت جريدة الاهرام فى عدد الجمعة ١٩٨٨/١٠/٢٨ م فى باب بريد الاهرام رسالة من مصرى يعيش فى منتريال بكندا سطر فيها ماقرأه فى جريدة الجازيت بمنتريال فى باب مماثل لباب بريد الاهرام وتشرف على الباب فى الجازيت السيدة آن لندرز ترد على مشاكل القراء ٠ ومن بينها مايلى : أب وام يستشيران آن لندرز : الولد بلغ سن ١٩ سنة ونرغب فى أن يترك البيت ويذهب الى حال سبيله لكنه يتغابى و « يطنش » ومقيم الى الآن فى البيت يأكل ويشرب وينام ٠ ولا نعرف ماذا نفعل معه ٠٠٠ فهو لايحس ٠ وترد عليهم بالآتى :

هذا شىء لايحتمل السكوت عليه ، لابد من أن تتحدثان معه بصراحه لكى يغادر البيت ٠٠٠

استشارة اخرى من أم : ابنتى عمرها ١٤ سنة وقد وجدتها مع صديقها منفردين وأخشى عليها من الحمل فى مثل هذا السن المبكرة ، ماذا افعل ؟ والرد :

أحسن حل هو حبوب منع الحمل ، ولابد ان تعرفيها بضرورة تناولها بانتظام وهى فعالة جدا ياسيدتى ، ويمكن أن تحصل عليها مجانا من المرضة التى تعمل بالمدرسة ٠

وفى الخاتمة يقول المصرى المغترب أحمد الله ان الفتاة المصرية

من قال أن الابنة فى مصر القديمة متى بلغت تصبح مستقلة تتصرف فى أمرها كيف تشاء ...

ومن قال ان المرأة وقتها كانت تتزوج من تشاء ولا يتوقف ذلك على رأى أحد ...

ومن قال ان المصريين كانوا قليلى الغيرة ...

الرد القاطع على هؤلاء المدعين ما ذكره القرآن الكريم ، حين تحدث عن بنات شعيب عليه السلام ، وشعيب كان فى زمن موسى عليهما السلام وكان يسكن بلادا مجاورة لمصر فى عهد الفراعنة والقوانين الاجتماعية تؤكد أن أعراف البلاد المجاورة تتوافق وخصوصا فى أمور الأخلاق والأسرة .

لقد فر موسى عليه السلام من مصر ، وخرج الى ما جاور مصر من ناحية الشرق القريب لمصر ، واذ به يرى الآتى :

وجد الرعاة يتزاحمون على عين يسقون منها ، ووجد فتاتين تقفان بعيدا عن الزحام،فى انتظار أن يصدر الرعاء وينتهى الزحام فتسقيان.. أليس هذا حياء وخلقا قويما .

الفتاتان تقولان لموسى أن أباهما شيخ كبير ، وهذاهو سبب مجيئهما للسقى ... ولو كان لهما من يسقى عنهما من الرجال لما جاءتا ... بل أن

لازالت انسانة كريمة تحمى شرفها وتصون عرضها وكرامتها .. الخ . ولا أحب ان اعقب اكثر من هذا على مقالة من يصفون المصرية القديمة بما قالوا ... « وحسبنا الله ونعم الوكيل » .. ارفعوا ايديكم ياقوم عن هذه الولود الودود ...

القرآن يؤكد على المعنى الخلقى عند هاتين الفتـــاتين حين يقول الله تعالى : « فجاءته احداهما تمشى على استحياء •• »

يا لها من كلمة جميلة شاملة قاطعة « استحياء » •••

وتذكر كتب التاريخ والتفسير أن موسى عليـــه السلام لما ســـار معها الى أبيها ، وكانت الفتاة تسير أمامه لتدله على الطريق ، فانكشف عقبها ، أو ان الرياح جسدت جسدها داخل ثيابها الفضفاضة •

فهل استمرأ موسى ذلك ، وأعجبه الأمر ، وهو لم يكن قد أوحى اليه بعد ، لقد كان مطاردا •

ـــان شهامة موسى ـــ الرجل العادى وقتها ـــ جعلته يقول للفتاة، سيرى خلفى واخبرينى عن الطريق بدلا من أن تســـيرى أمامى ••• انها أخلاق شاب مصرى من شباب مصر القديمة ••• هل كابرت المرأة وأصرت أن تمشى أمامه •• لا بل امتثلت وأكبرت فيه هذا الخلق وتلك الأمـــانة •

وهذا ما يحدثنا عنه أيضا القرآن الكريم حين يقص علينا مقـــالة هذه الفتاة الأمينة صاحبة العفاف والحياء ، حين حدثت أباها عن موسى ـــ عليهما السلام ـــ يقول القرآن الكـــريم « قالت احـــداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين »(١) •

وشعيب عليه السلام وهو النبى الحصيف صاحب الغيرة يعرض على موسى أن يزوجه احدى ابنتيـــه ، « انى أريد أن أنكحك احـــدى ابنتى هاتين ••• » اذ كيف يقم موسى عنده وهو غريب •

---

(١) الآية ٢٦ من سورة القصص :

أين مقالة كتاب التاريخ أصحاب النزعات والأهواء أمام هذه الحقائق الثابتة التى لا نقتنع بها فقط وانما ندين بها ونعبد الله عليها .

ان ما ذكره المؤرخون لا يخرج عن كونه نوعا من التحريض الدائم على مر التاريخ لكل من الرجل والمرأة كل منهما ضد الآخر — حتى وان استدعى الأمر الانحياز الى أى منهما صراحة وعلانية(١) .

---

(١) جاء فى كتب اليونان أن المرأة فى مصر كانت أعلى مقاما من الرجل . من حيث الرفعة وتسلطنها فى المنزل ...

وقد جاءت عبارات الاستهزاء بالازواج فى مصر القديمة فى كتابات كل من كسفوكل وأوريبيد ، فقد وصفوا الازواج باوصاف منفرة وبانه لاحول لهم ولا قوة فى بيوتهم ، فهم يجلسون فى بيتوتهم ونساؤهم لهن العقد والحل فى جميع شئون المنزل ...

ولست أدرى ماذا قصد هؤلاء بشئون المنزل .. ان كان المقصود وهو تربية الابناء والعناية بهم ، والقيام بشئون تجهيز الطعام وترتيب البيت وما الى ذلك ... فليس هذا مما يعد منقصة للرجل ان يترك أمره لزوجته ، تصرفه كيف تشاء .

الا اذا نظر هؤلاء بعين الرجل الغربى الذى لا أظنه يطالب بحقه فى القيام بذلك فهو يؤديه مجاراة للمرأة التى تنادى بأن يقوم الازواج بالحمل والولادة أيضا ...

هذا جانب من تحريض طرف ضد الآخر ... وصورة أخرى معاكسة لاثارة الجانبين ضد بعضهما ...

فقد جاء على ألسنة كتاب التاريخ أن الرجل كان ينظر الى المرأة اثناء حيضها نظرة تجعله يفر من ملامستها ... الأمر الذى حدى بالمصريين القدماء الى حبس النساء أثناء حيضهن فى مكان خاص ... وكأنهن بلاء يجب أن يعزلن عن الرجال ..

ويقول أولئك المؤرخون أنه قد ورد ذكر للمكان الذى كانت تعزل

فقد قال مونتسكيو : من المخالف لحكم العقل والطبيعة أن تكون النساء صاحبات الأمر فى البيت(١) ولا يخفى ما فى ذلك من تحريض ٠٠ هذا من ناحية وتكاد تدرك بميسور الفكر والتأمل ٠

أما الهدف الثانى وهو لب مقصدهم ، فهو دعـوة المرأة المسـلمة المحافظة العارفة حدود ربها وحقوق زوجها وواجبات أولادها وبيتها، تحريضها بالخروج عن هذه الحدود الدينية التى استقتها من الشريعة المنصفة التى أعطتها مثل ما أوجبت عليها بل أعطتها أكثر ممـا أوجبت عليها لغيرها انها أعادت لها انسانيتها التى سلبها منها غيرها على مـر التاريخ ، وان كان من أولئك المؤرخون أنفسهم ٠

لقد ضنوا عليها بأن تكون مثال العفـة والشرف ، فدعـوها الى الخروج والابتذال بدعوى أن ذلك هو التحضر قديما وحديثا ، دعوها للخروج عن طاعة أسرتها ابتـداء بوالديها وانتهاء بزوجها وأبنـائها ، وأوهموها أن ذلك هو التحضر قديما وحديثا ٠

فيه النسـاء ، أو تسجن فيه زمن الحيض فيمـا وجـد من أوراق قديمة تتحدث عن قسمة دار بين اثنين ورثاها فتقول هذه الأوراق :

« انشرح صدرى وسر فؤادى لمـا أعطيتنى نصف دار أبينا ٠٠٠ وغرفة تسجن فيها نسائى مدة حيضهن ٠٠٠ وقد كتب واحد من الورثة نصيبه فى الدار لزوجته فاصرت على أن يذكر فى عقد التنازل لها الغرفة التى تسجن فيها النساء فى زمن الحيض ـ وكانت هذه الغـرفة تسمى الهريرى ـ واستدل المؤرخون بذلك أن النساء كن منقادات للرجال ٠٠٠

ما هذا أيها المؤرخون ٠٠٠ مع من أنتم ، أمع الحق ٠٠٠ أم أنتـم محرضون ـ يراجع ما جاء فى كتاب محاسن الأولين فيما للنساء وماعليهن فى قوانين قدماء المصريين ترجمة على جلال الحسينى ٠

(١) مونتسكيو : أصول النواميس والشرائع ٠

أرادوا لها أن تكون كالمرأة الغربية بما هى عليه من حال وصل بها الى حد كراهيتها لنفسها ذاتهـــا •

وليس ببعيد ما حدثتها به الصحافة من أخبار بعض النساء اللائى تخلصن من حياتهن اضيقهن بهذه الحياة الخالية من المودة الخالصـــة والألفة والسكن النفسى •• وان ملئت بعبارات الاستمالة والرغبة •

ومن هؤلاء من قامت قبل انتحارها بقتل بناتها الثلاث بيدها وقد كتبت تقول انها أقدمت على ذلك خوفا على بناتها من الانخراط فى حياة مثل التى عانت منها ، وعبت حتى الثمالة(١) •

---

(١) وهذه واقعة أخرى نشرتها جريدة الاهرام بتـــاريخ ١٢/١٧/ ١٩٨٨م فى أخبار قصيرة تحت عنوان فوق الاحتمال •

كولومبو : قتلت أرملة فى سرى لانكا ٧ من أبنائهـــا بالسم قبل أن تنتحر بالقاء نفسها فى بئر ، وذلك لعـــدم تحملها للمضايقـــات التى تعرضت لها من اثنين من أزواج بناتها ، لأنها لم تعطهما مهرا كافيا عند الزواج • والمعروف أنه عند طائفة التاميل التى تنتمى اليها الأرملة أن النساء هن اللاتى يقدمن مهور الرجال عند الزواج •

ان هذه الحادثة حادثة متكررة خصوصا فى سرى لانكا وبلاد الهند وغيرهما من البلاد التى تدين بغير الاسلام والتى تعطى المرأة فيها للرجل مالا حتى يتزوجها •

وقد اخترعوا اسماء كثيرة لهذا المال • فمنهم من يسميه « دوطه » « أو بائنة » أو غير ذلك •

الأمر الذى ترتب عليه عدم زواج الفقيرات اللاتى لايقدرن على دفع الأموال للرجال •

وهو مايدفع كثيرات من النساء للانتحار أو القتل على ايدى اهلهن ••• أو الخروج الى حيث البغاء والتردى •••

ان المدقق فيما كتبه البعض من المؤرخين يجد بين سطورهم ما ينم عن وضع المرأة فى الدولة المصرية القديمة ، ويتكشف له أن الحديث عن مساواتها بالرجل حينذاك هو ضرب من الرجم بالغيب على أحسن الفروض ومع حسن الظن بهم فيما كتبوه •

لكن الحقيقة الواضحة أن المرأة لم تكن بالصورة التى رسموها لها ••• وقد ذكر بعضهم أن المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة ربما لم توجد فى العالم قط •

وذكر دليلا على مقولته هذه فقال : فهذه المرأة المصرية مع حفظها المنزلة الشريفة ما برحت تحت سلطة الرجل ، فلقد شوهد بين نقوش المقابر أن احترام النساء كان بنسبة تقديسهن للحقوق الزوجية وأمانتهن لأزواجهن ويستطرد يسوق أدلته على مقالته تلك فيضيف •

ولقد شاعدت كثيرات منهن يعملن خادمات فى بلاد الخليج من أجل جمع بعض المال ليدفعنه لمن يتزوجهن ••• وهن لايقمن وزنا لخلق ولا يلتزمن بمعايير اخلاق أو سلوك الأمر الذى لايبشر بخير ••• بل وينذر بخطر المرض العضال ••• خصوصا وان من هؤلاء من يقمن على تربية الأطفال وكم نصحت طالباتى ان تولى الأم عناية كاملة لابنائها بدلا من أن تتركهن الى الخادمات ••• وكم حدثت الرجال الذين حاضرتهم ودعوتهم الى الاهتمام بأولادهم ••• فمن شب على شىء شاب عليه ••• •

ومما يؤسف له أن عدوى هؤلاء الخادمات قد سرت الى مصر وغدونا نسمع عن هؤلاء الذين يستقدمون الخادمات من هنا وهناك وكلهن ممن جئن بهدف جمع المال وفقط ••• فهو هدفهن ولا شىء أغلى منه • أفيقوا ياقوم فلقد قارب أن يسبق السيف العذل •••

ومما يضعف فكرة المساواة على اطلاقها ، نظامهم وراثة العرش ، فانه وان كان للمرأة عندهم حق التاج . الا أن ذلك الحق ما كان ليتم لها الا فى فقد الوارث من الذكور ، ومع أن هذا النظام سن قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة ، حسب رواية ديودور فان جدول ملوك مصر لم يذكر غير خمس ملكات ازاء أربعمائة وسبعين ملكا .

هذا ومن أدلة ميزة الرجل عندهم أيضا ، أن المرأة ولو ارتقت الى العرش كانت تشعر بأنها فى مقام هو للرجل وليس لها ، فان الملكة حتشبسوت التى حكمت قبل ١٥٥٠ سنة من المسيح كانت مجبرة على لبس ثياب الرجال مراعاة للرأى العام .

ثم يختم مقالته بقوله : فاذا فان كان كل استقلال ومساواة ينسبان للمرأة المصرية هو نسبى والرجال كانوا قوامين على النساء(٢)

هذه باختصار المرأة المصرية من خلال كتابات المؤرخين .

ولقد حاولت أن أرسم لها صورة من خلال ما جاء به القرآن الكريم — وهو القول الفصل — أوضح فيها بعض الأبعاد لحياتها ومنزلتها وخلقها وسلوكها ومالها وما عليها « وان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

---

(١) جميل بيهم : المرأة فى التاريخ والشرائع .

المطلب الثـــانى :

فى العراق القديم « بلاد الرافدين »

العراق القديم أو بلاد الرافدين تمثـــل المنطقة التى تقع شـــمال شبه الجزيرة العربية ، ويجرى خلالها الرافدان المعروفان الآن بنهرى دجلة والفرات وما أعنيه هنا بالعراق القديم هو منطقة الرافدين وما جاورها من مناطق بلاد فارس التى تقع فى شرق العراق القديم،وغيرها من البلاد التى تقع فى غرب العراق القـــديم أو فى شماله اذ أن هذه البلاد كلها لها صلات وعاداتها متقاربة وملك دولها قد يتسع أحيانا ليشمل تلك البلاد أو ينحسر حتى يضعف سلطانه أو يزول • وهكذا شأن الدول والحكام ولذا فان الحديث عن المرأة ومنزلتها فى منطقة العراق القديم يشمل الحديث عن المرأة الأشورية والبابلية ، والكلدانية والفارسية ، وغـــيرهن •

اذ ليست احـــداهن بمعزل عن الأخـــرى فالدول وان تعـــاقبت أو تجاورت فان ذلك لا يعنى الاختلاف الجزرى بين العادات والتقاليد والمعتقدات وخصوصا فى الفترات التى سبقت ميلاد وبعثة سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام •

فالمرأة فى العراق القديم وما جاوره تكاد تتوافق أوضاعها وتتماثل منزلتها أو تتشابه ظروفها تشابها يكاد يصل حد التطابق الا فى القليل وما أقلـــه •

المرأة فى العراق القديم :

ذكر المؤرخون أن الآشوريين قوم جاءوا الى بلاد الرافدين من شبه الجزيرة العربية فى القرن الرابع قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام ، ونزلوا هناك فى شمال العراق القديم وكانت دولتهم التى ظلت قائمة حتى ورثها البابليون فى الألف الثالثة قبل الميلاد .

والدولة الآشورية والبابلية عرفت الطبقية كبقية الدول فى ذلك العصر والطبقية هذه التى عرفتها الآشورية والبابلية نظرت الى المجتمع على أساس أن هناك نساء العامة وهم الغالبية المطلقة فى الشعب وهؤلاء النسوة كن الطبقة العاملة الكادحة فى الأمة ، فهن يكدحن ليل نهار ، لا يعرفن الراحة سواء فى بيوت آبائهن أو فى بيوت أزواجهن ، حظهن قليل وهمهن كثير . الأمر الذى لم يكن للفتيات حتى حق تقرير مصيرهن الزوجى ، فليس لها الحق فى اختيار شريك حياتها الذى ستقضى عمرها فى خدمته والسهر على راحته والقيام بأعباء بيته .

بل ان الوالدين أنفسهما لا يملكان حق الاختيار لبنتيهما شريك حياتها . ولا أن يزوجاها بمن يصلح لها أو يناسبها .

فالنظم المتبعة فى الدولة الآشورية والبابلية لا تبيح لهما ذلك ، وانما تقضى هذه النظم أن تجمع النساء اللائى فى سن الزواج كل عام ويؤخذن الى السوق فى القرية أو المدينة حيث يعرضن ليبيعهن الكاهن بالمزاد العلنى « لمن يدفع أكثر » من الرجال(١) .

---

(١) يقول لويس فرنك : ان البابليين كانوا يقيمون كل عام فى المدينة أو القرية سوقا ، فيذهب الفتيان اليها ويشترون نساء بالمزاودة فى ثمنها ، لادارة البيت والقيام بما تتطلبه الحياة الزوجية .

ويوصى الكاهن الرجل المشترى أن يتخذ المرأة التى اشتراها زوجا له ، وهكذا تبدأ المرأة الآشورية أو البابلية حياتها الجديدة فى بيت زوجها أو من اشتراها بماله • وتودع أبويها اللذين أنهيا عشرة ابنتهما ببيعها وقبض ثمنها يا لها من حياة أهون منها الموت ، تلك التى يبيح الابوان ابنتهما لمن يدفع أكثر من الرجال دون مراعاة شىء آخر سوى كثرة الثمن الذى يقبضانه ويعودا به الى بيتهما •

وتذهب المباعة مع من اشتراها من الرجال مسلوبة الارادة غير قادرة على ابداء ملاحظة أو التعبير ببنت شفة ، تذهب مقسودة الى بيت الرجل الذى اشتراها بماله •

وتظل عنده فى بيته تعمل فى البيت والحقل وكل مكان ، ولا مخلص

أما حديث جميل بيهم عن المرأة فى العراق القديم فى كتابه المرأة فى التاريخ والشرائع فقد أورد فيه أن شرائع الأشوريين والبابليين كانت لاتسوغ للوالدين أن يزوجا ابنتهما بمن صلح لها ، بل تقضى على العذارى البالغات أن يجتمعن كل عام حيث يبيعهن الكاهن بالمزاد العلنى، مشترطا أن يتخذهن المشترون زوجات لهم ، وان وقع خلاف بين الزوجين كان على ولى المرأة ارجاع ثمنها قبل الافتراق ، وكان محتوما على كل امرأة أن تأتى مرة واحدة فى حياتها الى هيكل ميليتا ربة الجمال لتبيح نفسها الى أجنبى •• فكن يجلسن فى الهيكل صفوفا ، وبينهن طريق يمر فيها الغريب قصد الانتقاء ، فاذا اعجبته احداهن رمى قطعة فضية عند قدميها ، وقال لها : انى أتوسل من أجلك الى ميليتا ، فتقبل الهدية المقدسة وتتبعه ، وان كان حقيرا قبيحا ، وكان لايسوغ لمن دخلت الهيكل أن تعود الى منزلها قبل القيام بهذا الغرض الدينى ، وبسبب ذلك كانت القبيحات قد يبقين فى الهيكل منتظرات سنين ، محرومات من أزواجهن وأولادهن •

لها ممن اشتراها الا المـوت أو الطلاق ـ أقرب الأجلين كما يقـال ، فالأول أهون لها بكثير من رفيقه وقرينه الذى هو الأجل الثانى،الطلاق .

أما عن الطلاق هذا فانه كان من حق الرجل ، متى شاء طلق هذه المرأة التى اشتراها بماله ، ولا حق لأحد أن يسأله عن سبب،ولا يطالب بأى حق لهـا عليه ، بل انه هو الذى يطالب أباها بأن يرد عليه المال الذى اشتراها به من هذا الأب يـوم بيعت بالمزاد العلنى فى السـوق وعلى قـارعة الطريق أمام مرأى ومسـمع الجميع وفى ظـل مباركات السـكاهن .

أما النساء اللائى لا يوجد من يشتريهن عند بيعهن فى السـوق فانه كان يتحتم على الأب أن يبحث عن شخص يقبل أن يأخذ ابنتـه التى لم يشترها أحد وعلى أن يقدم الأب مبلغا من المال للرجل فى مقابل أنه قبل أن يدخل تلك الفتاة بيته كزوجة .

وكانوا يسمون هذا المال الذى يدفعه الأب لمن يأخذ ابنته،البائنة، وفى مثل الحالة التى معنا لو أراد من أخذ هذه المرأة من أبيها وأخـذ مالا فى مقابلة ذلك ، لو أراد فراقها فان عليه أن يعيد الى أبيها ما أخذه من مال . أى يعيد لأبيها قيمة البائنة التى كان قد أخذها من هذا الأب مع هذه الابنة المعادة الى أبيها .

هذا اذا كان الرجـل هو الذى لم يعد يطيق بقـاء هذه المرأة فى بيته ... مسكينة هذه المرأة .

أما اذا ضاقت المرأة بحياتها فى بيت زوجها الذى اشتراها بماله ، وأخرجها ضيقها عن حد الاعتدال وأوقعها فى حالة من السأم والغضب نتج عنها أن طالبت زوجها بطلاقها ، أو قالت له : أنت لست لى زوجا. فان مثل هذه المرأة يحكم عليها بأن تلقى فى النهر لتغرق .

يا لضيعة النساء قبل أن ينصفهن الاسلام .

فان كتب الله لهذه المرأة التى ألقيت فى النهر السلامة من الغرق ولم يبتلعها الماء وخرجت من النهر فانه لا نجاة لها من العار والتنكيل بها وامتهانها •

انها فى هذه الحالة يتقدم اليها زوجها — أى من كان زوجها — فينزع عنها ثوبها • ويعطيها بدلا منه قطعة من ثياب تستر نصف جسدها من أسفل « مئزرا » ثم يطاردها هذا الزوج — أى من كان زوجها — الى الشارع وهى نصف عارية ، فتصبح حينذاك فريسة لكل من أراد الافتراس ، وغنيمة لكل من اشتهى الغنيمة — الخاسرة — •

هذا ولا ينسى أن المرأة التى تصبح مقصد كل قاصد وترتكب الأفعال الشينة وتسلك السلوك المعوج ويعرف عنها ذلك تعاقب على مسلكها بالموت • فيؤتى بها حيث تفصل رأسها عن جسدها بسيف أو غيره من الآلات الحادة •

أن المرأة فى العراق القديم كانت محاصرة من كل جانب واقفة بين خيارين أحلاهما مر ، القهر فى بيتها فان ضاقت به فالنهر والموت ينتظران •

انها كانت تتحمل وحدها مسئولية البيت كله ابتداء بالقيام بكل الأعمال والخدمات فيه وانتهاءا بتحملها مسئولية عدم الانجاب •

فالمرأة اذا أبطأت فى الانجاب ولم تصر أما بعد زواجها فانها تصبح ملعونة مشؤمة ، بها مس من الجن •

ومن كانت كذلك يجب الاسراع فى التخلص منها حتى لا تصيب أسرتها بما حل بها من النكبات •

لقد وصف « جان أمل ريك » ما تعرضت له المرأة فى العراق القديم من مواقف ومهانات ، خصوصا اذا توانت فى أمر من الأمور

الملقاة على عاتقها أو الملزمة بها كمسألة أن تكون أما مثلا ، فقال : وانه لموقف حرج من غير بد ، موقف مثل هذه المرأة المسكينة ، فلقد كان محتوما عليها أن تظل خاضعة خائفة محتملة ضروب المهانة والذل غير متذمرة عليها من الواجبات الشيء الكثير ، ولها من الحقوق أقل من اليسير ، أما الطلاق فخص به الرجل من غير أن يقيد فيه بقيد أو شرط، فى حين أن المرأة لم يكن جائزا لها أن تبادره به ، أو تلتحق الخزى والعار(١) .

هذا هو حال المرأة فى العراق القديم بصفة عامة وفى الطبقة الكادحة بصفة خاصة .

فالمرأة فى الطبقة الكادحة كانت تتميز عن المرأة فى باقى الطبقات الأخرى أنها كانت تخرج من بينها الى حقلها أو الى حيث تريد لقضاء حاجياتها ، الأمر الذى كانت نساء الطبقتين الأخريين يحسدنها عليه ، فقد حرمن من الخروج وحدهن بل كن لا يخرجن الا نادرا وبصحبة العبيد والجوارى .

فكانت نساء الخاصة يلزمن البيت فى الغالب ولا يخرجن الا نادرا للصلاة مثلا فى الهيكل ، أو الزيارة من الزيارات الضرورية وهن فى خروجهن هذا قد أحطن بالاتباع من الخدام والمراقبين .

كما أنهن كن يحسدن نساء العامة اللائى يخرجن من غير غطاء الوجه والرأس بل وكانت نساء العامة غالبا ما يتركن شعرهن من غير ستر .

---

(١) يراجع مركز المرأة فى قانون خمورانى والقانون الموسوى جان أمل ريك .

أما نساء الخاصة فكن اذا خرجن فان عليهن أن يلبسن ما يسمى بالبرقع الذى يغطى وجههن ، وكان لا يظهر منهن شىء وهذا الأمر كان يسبب لهن ضيقا وكم تمنين أن يخرجن مثل عامة النساء الفقيرات.

واذا كانت نساء الخاصة قد ضقن بهذا فان نساء الملوك والحكام كن أشد ضيقا(٢) .

فانهن كن يعاملن بعنف كانهن مسجونات فى سجن الرق والاستعباد، اذ لا يسمح لاحداهن أن يراها أحد غير خدامها ولا يمكن أن تظهر بجانب الملك فى حفل أو عيد أو غيره .

ويقول ادى شير مصورا جانبا مما كانت عليه حال المرأة فى العراق القديم . كانت نساء فى كلدا وآشور يتركن رؤوسهن بلا غطاء ويسدلن الشعر على الأكتاف أو يسترنه بغطاء طويل ينزل الى الظهر ، وكانت نساء العامة يقضين زمانهن فى الدكاكين والمخازن ، ويجلن فى الأزقة بحرية مكشوفات الوجه لقضاء أمور بيتهن أو لاجراء وظيفتهن .

أما نساء الخاصة فلا يخرجن من البيت الا نادرا ، وذلك للذهاب الى الهيكل للصلاة أو لزيارة رفيقاتهن ، ولا يخرجن وحدهن بل يحاط بهن عبيد وجوار ، ويلبسن برقعا يغطى وجههن وجسمهن .

---

(١) نقل عن جان آمل ريك أن نساء الملوك كان نصيبهن من الاستعباد والرق أعظم ، فبينما كانت النساء فى مصر يحللن من قرعون فى المحل الأرفع ، كانت نساء الملوك الكلدانيين فى حجاب مستمر وكن لا يشاهدن أبدا الى جانب أزواجهن من الملوك واننا لنرى على الآثار المصرية أميران جالسان على كرسى الزواج يعانقه بتدله وولع ، بينما كانت زوجات الأمير الكلدانى أو أمه أو شقائقه أو فتياته حتى وصائفه أنفسهن محجبات غير منظورات ، فكانت دور الحرم لاتفتح أبوابها الا فى ما ندر .

وكان تعدد النساء مباحا عند الاشوريين والكلدان ، وكان عندهم الطلاق أيضا ، والمرأة العاقر كانت مبغوضة عندهم ، ويتخذونها ملعونة بهـا شيطان ، فكـانوا أغلب الأوقـات يخرجونها من البيت كأنهـا نجسة(١) .

ظل الأمر هكذا بالنسبة للمرأة فى العراق القديم حتى كان عهـد الملك حمـورابى مؤسس الدولـة البابلية الكلـدانية الأولى ، والتى استمرت حوالى أربعة قرون من سنة ٢٤٦٠ ق م سنة ٢٠٨١ ق م ولقـد أخذت هذه الدولة منذ عهد حمورابى تنظر فى كل أحوالها وتغـير من النظم الجائرة المتوارثة ، وتضع من القوانين ما يعطى لمواطنيها بعض الحقوق التى لم تكن لهم قبل ذلك .

فاستمرت هذه الدولة فى تطلعاتها الى تحرير مواطنيها من الرق المقنع ، الذى فرض عليهم ، أو على الغالبية منهم ، وجعلت لكل مواطن حقا ونصيبا من الحرية ، ونظمت وضع الأرقـاء والنساء ، وامتـدت نظمها لأمور المعاملات والجنايات وما يحدث بين الناس من منازعات .

وفيما يلى أشير الى بعض ما وضعه حمورابى فى قانونه من نظم تقنن ما يتصل بالمرأة وحقوقها وأوضاعها فى مجتمعه ودولته .

لقد جعل قانون حمورابى للمرأة الحق فى أن تشارك اخوتها الذكور فى ميراث أبيها وحصتها وان كانت قليلة اذ كانت تأخذ ثلث ما يأخـذه أخوها ، الا أن ذلك جعل لها الحـق فى التملك ، وغدت صاحبة مـال أو عقـار .

فأصبح للمرأة نوع من الاستقلال المالى . ولها حق التملك وعـلى هذا فانه اذا منحها أبوها مالا أو جهـازا فان لها حق تملـكه وان كان

---

(١) أدى شير : تاريخ آشور .

تملكها قاصرا على التمتع بنتاج ما تملك ، وليس لهـا حق ادارة هـذا الملك أو التصرف فيه ، فذلك من شأن أخوتها •

فهم الذين يديرون ما ورثت عن أبيها ويعطونها ما يكفى لاعاشتها، فان لم يكن لها اخوة يديرون ما آل اليها من تركة أبيها ، فان لها الحق فى أن تعهد بذلك لمن تريد من المزارعين أو غيرهم •

هذا فى ما يخص ما تملكه من أمر المال •

أما ما يخصها من شأن نفسها فانها غدت تتمتع بقدر أكبـر من الحرية ، كل ما هنالك أنه ليس من حقها انجاب أبناء طالما لم تتـزوج زواجا معتدا به بحيث يكتب ذلك وتثبته وثيقة لها الشكل الذى حـدده القـانون •

أما من كانت لها علاقات غير ذلك فان القانون لم يتعرض لها الا فى مسألة انجاب الأطفال ، فانه منعها من ذلك الحق •

وفيما يتصل بأمر الزواج فان حمورابى قد وضع ما ينظمه بحيث جعل الأصل المقرر فيه أن من حق الرجـل أن تكون له امرأة واحـدة شرعية فان اتخذ أكثر من واحدة فان لم يكن هناك مبرر فان علاقتـه بمن كن فوق الواحدة تعد علاقة سفاح •

والمبرر الذى أشار اليه حمورابى هنا هو أن تصاب امرأة الرجل القانونية ــ أى التى عقد عليها عقدا يوافق ما وضعه القانون ــ بمرض أو عاهة فانها ان أصيبت بذلك فان القانون يبيح لزوجهـا أن يتزوج بأخـرى •

ويحتم القانون على هذا الرجل أن يبقى امرأته المصابة فى منزلة ولا يخرجها منه ويقوم باعاشتها اعاشة لائقة • طالما أنها قبلت البقاء فى بيته ، فان أرادت الزوجة الأولى الخروج من بيت من تزوج بأخرى

قلها هذا الحق ، ومن حقها أن تطالب زوجها بأن يرد عليها ما أخـذه منها من مال عند زواجه اياها « بائنتها » .

وهذا ما أشارت اليه المادة ١٤٨ من قانون حمورابى .

أما عن الطلاق فانه قد حدث فى أمره تغير فانه قد أصبح من حق المرأة أن تطلبه ولا يعد ذلك منقصة فى حقها ، ولا تلحقها بسبب طلبها الطلاق أضرار ، وذلك فى حالة ما اذا أصابها سوء من زوجها أو أوقع بهـا ضررا .

والمعول فى شأن اعتبار الأمر ضررا بالزوجة من عدمه هو القضاء، فهو صاحب الكلمة المسموعة والمعتدة فى ذلك .

فقد جاء فى المادة ١٤٢ من قانون حمـورابى : اذا مقتت المـرأة زوجها وقالت له : «لن تملكنى» ينظر فى أمرها ، ويكون لصاحب القضاء الكلمة الفاصلة ، فاذا تبين أن الخطأ من جانب الزوج أمكن أن تعـود الى بيت أبيها بعد أن تسترد بائنتها ، لأنها لا جناح عليها ولا اثم .

أما اذا كان الخطأ من جانبها فانها تلقى فى الماء .

ويظهر من هذه الفقرة الأخيرة أن المـرأة كانت تجنح الى اثـارة المشاكل وارتكاب المخالفات والوقوع فى الرذائل ، فى غالب الأمر .

ومن هنا فان حمورابى قد وجه لهـا تهديدا اذا حـاولت اتلاف حياتها أو هجران بيتها . ولا يتصور أن يتهدد بمثل هذا التهديد وهو الالقاء فى الماء وما يتبعه من غرق أو تشرد كما مضى ، الا اذا كان فى طبعها العنف والخروج عن الجادة وارتكاب الحماقات .

وهذا فى الغـالب ما حدا بحمورابى الى صـياغة المادة ١٤١ من قانونه والتى نص فيها على ما يلى :

تساق الى المحاكمة المرأة المقيمة فى منزل رجـل ، اذا هى همت بالانصراف أو أحدثت شقاقا ثم ، أو تسببت بخراب البيت،أو غادرت

زوجها • فاذا قال الزوج : « أنا أخرجهـا » فانه يخلى لها السـبيل للانصراف ، ولا يبذل لها شيئا فى مقـابل صرفه اياها • أمـا اذا قال الزوج : « أنا لا أصرفها » فانه يصبح بامكانه أن يتزوج امرأة أخرى مع بقاء الأولى فى بيت زوجها كخادمة •

الى هذا الحد عامل قانون حمورابى المرأة التى تحدث شقاقا فى بيت زوجها أو تتسبب فى خلق شغب ومشاكل تؤذى هدوء البيت •

انه حكم عليها بما ينكل بها نفسيا نظرا لعظـم ما ارتكبت ، انه يقضى بأن المنكوبة النكدة ، خادمة لزوجها وزوجته الجديدة •

هذا كله اذا كان العبث لم يمس الحرمة الزوجية ، ولم ينـل من العرض شـيئا •

أما اذا وصل العبث الى حد النيـل من عرض بيتها ، فان الأمـر يلزم عليه انزال عقوبة شديدة بالزوجة وشريكها اذا ضبطا متلبسين، وتتمثل هذه العقوبة فى أن يشد وثاقهما ــ المرأة وشريكها ــ ويلقيـا معا فى النهر حتى يغرقا •

هذه هى العقوبة فى مثل هذه الحالة ، ما لم يتنـازل الزوج عن حقه ويعفو عمن دنست عرضه ، أو أن يصدر من الملك ما يقضى بالعفو عن هذه المرأة ومن شاركها فعلتها •

أما فى حالة اتهام الرجل لزوجته من غير تلبس ، فان عـلى هذه المرأة أن تبرىء نفسها بما تستطيع وأن تقسم على ذلك بأغلظ الايمان ••• فان شاع أمرها ولاكتها الألسنة وحامت حولها الشـبهات •••• فانها تلقى فى النهر ، فان غرقت وغاصت الى قاعـه اعتبرت فاجـرة ونهايتها الاغراق وهى نهاية قررها القانون الحمورابى ، لكل من تحوم

حولها الشبهات ولم تثبت براءتها • وهذا ما نصت عليه المادة ١٤٩ من القانون المذكور •

هذا ما جاء به قانون حمورابى والذى يعده رجالات القانون حتى اليوم أنه أبو القوانين وباعث العدالة ومحرر المرأة مما كانت فيه ومن القيود التى قيدت بها فى دولة العراق القديم وخلال العهود الأشورية(١) ••• أى انصاف هذا وأى تحرير الذى تعاقب على مجرد أمر يشاع أو تهمة تلقى على عواهنها من غير دليل ••• لابد وأن للأمر أبعادا أخرى •

واذا كان هذا هو حظ المرأة والنظر اليها فى دولة العراق القديم، فان الأمر لم يقتصر على الدولة العراقية القديمة وانما هو حال المرأة فى المنطقة كلها ان لم يكن فى العالم بأسره فى تلك العصور •

فقد كان هذا حال المرأة الفارسية التى كانت تباع وتشترى كالسلعة ، بل ان الرجل فى فارس قد بلغ به التجبر والتحكم فى المرأة درجة أوصلته الى أنه كان يمكنه أن يقتلها اذا شاء ، ولا يسأله أحد عن فعلته هذه •

فقد ذكر عمر كحالة أن المرأة الفارسية كان حالها أسوأ مما كان عليه حال المرأة الآشورية والبابلية ، فقد بلغت الانحطاط التام حتى

---

(١) ذكر الأستاذ العقاد فى كتابه المرأة فى القرآن ص ٤٨ أن تشريعات حمورابى التى اشتهرت بها بابل كانت تحسب المرأة فى عداد الماشية المملوكة ، ويدل على غاية مداها فى تقدير مكانة الأنثى أنها كانت تفرض على من قتل بنتا لرجل آخر أن يسلمه بنته ليقتلها أو يملكها اذا شاء أن يعفو عنها ، وقد يضطر الى قتلها لينفذ حكم الشريعة المنصوص عليها •

قيل : ان الفارسى له حق التصرف بها كأنها سلعة تشترى وتباع ، وأن له الاماتة والاحياء(١) •

ان حال المرأة الفارسية كان حالا يرثى له،واما عن حقوقها فلا حق لها بل ولا يكاد يكون لوجودها أدنى ذكر بجانب ما كان لوجود الرجل من حيثية وكيان •

واذا كانت النساء فى الدولة الآشورية والبابلية يحبسن فى زمن حيضهن • فان ذلك كان أيضا حال المرأة الفارسية ، بل ان الفارسية كانت أسوأ حالا من غيرها ، فغيرها كن يحبسن فى المنزل نفسه أو فى مكان خاص بهن داخل المدينة أو القرية •

أما الفارسية فانها كانت تحبس فى زمن حيضها فى خيمة صغيرة تضرب للنساء فى ضواحى المدينة أو القرية وبعيدا عن العمران ، ولا يسمح لأحد بمخالطة النساء أو مجادلتهن طول فترة الحيض،وكانت هذه الخيام تسمى « أخمى » وكانت مبعث خوف من كل من يقترب منها •

وكان على الذين يقدمون الطعام للنساء طوال فترة حبسهن بسبب الطمس — أن يلفوا أيديهم وأنوفهم وآذانهم بلفائف من القماش ويبالغوا فى هذه اللفائف حتى تصل غلظتها الى حد غريب وكان مبعث ذلك كله أن هؤلاء النسوة كن فى رأى الرجال،نجسات وأنهن ينجسن كل ما يمسهن أو يشم الهواء الذى يمر بهن أو حتى يمس الخيام التى يقمن بها •

---

(١) المرأة فى القديم والحديث ص ١٣٢ جـ ١ •

ولم يكن للمرأة الفارسية حق التعلم وهذا ما أثبته الباحثون عن تاريخ فارس فلم يجدوا شيئا يذكر عن تعلم البنات اللهم الا بنات الحكام أو الاشراف فان هؤلاء الأخيرات كن يعهد لكهنة الآلهة « أناخيد » المشهورة عند الفرس ، بأن يشرفون على هؤلاء البنات ويعلمونهن بعض التعاليم الخاصة بالزواج ...

ويا ضيعة البنات فى وسط الكهنة على مر الزمن(١) ...

وقد ذكر أحمد آجيف جانبا مما كان عليه حال المرأة الفارسية فى كتابه حقوق المرأة فى الاسلام فقال :

وأما بشأن حقوق المرأة ومركزها فى العائلة ونسبتها الى زوجها ووالديها فحدث ولا حرج ، فان النساء كن فى بلاد فارس تحت سلطة الرجل المطلقة ، الذى كان يحق له أن يحكم عليها بالموت أو ينعم عليها بالحياة طبقا لما يراه وتطيب له نفسه ، وبوجه عام فانه كان يتصرف بها كما يتصرف بسلع وأدوات بيته .

ومما هو معروف أن المرأة عند الفارسيين أحد أصول الجرائم الثلاث التى هى الأرض والمرأة والذهب .

هذا هو جانب مما كانت عليه حال المرأة فى دولة العراق القديم وما جاورها خلال أربعين قرنا من الزمن قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

وهو حال غنى عن التعليق ، تجرعت فيه كأس المذلة حتى الثمالة حتى هؤلاء الذين ساءهم حالها وما كانت عليه وحاولوا اصلاح تلك

---

(١) ان ذلك ليصدق عليه ما قيل فى الأمثال الريفية المصرية قد حرسوا الذئب على الحمل .

الحال ، لم يمكنهم التخلص من ماضيهم ، فقننوا ذلتها بعد أن كانت غير مقننة وألزموها بالطريق القانونى ما كان يمكنها الافلات منه بطريق أو بآخر ، ان هى استطاعت .

ان حال المرأة مع هؤلاء كحال المستجير من الرمضاء بالنار .... وهى حال لا تحسد عليها انهم مع اعجاب البعض بهم ، لا يختلفون كثيرا عما كنا نقرأ فى طفولتنا وصبانا من قصة تلك الدبة التى أرادت أن تذب الذباب عن وجه صاحبها ، والقصة معروفة حتى انها غدت مثلا يضرب .

والدبة وان فعلت بصاحبها ما فعلت حبا فيه وخوفا عليه معذورة فى فعلها فهى أولا وأخيرا حيوان أعجمى لا يكاد يبين لا فكرا ولا تصرفا أما أولئك الذين يصفهم البعض بأنهم صانعو القوانين وآباؤها فما عذرهم حين فرضوا على المرأة ما فرضوا وقننوا لها الذلة والصغار وان تنقلب من سيدة بيت الى خادمة فيه ، وحكموا عليها بأن تلقى فى اليم ، من غير أن يكون لها ما كان لموسى عليه السلام ، من عين ترعى وملائكة تحفظ بأمر الله ...

ثم هى ان نجت فلا مفر لها من الموت بأن تقطع رقبتها بسيف أو غيره ....

ما لهذه المسكينة التى جعل الله الجنة تحت قدميها ...

قد حكم عليها أولئك بأنها أصل الجريمة وأساسها ... انه حكم بشرى تجرد من الوفاء لأمه أو ابنته ، أو شريكة حياته وأنيسة وحدته ...

حتى أولئك الذين كانوا يقيمون طقوس العبادة أو يعملون على الحفاظ على المعتقدات — أيا كانت صحتها — هؤلاء الأوغاد لم تسلم

منهم المرأة فى عصر من العصور ، اللهم الا من عصم ربى بالاسلام شريعة مراقبة الله وصيانة العرض ...

لقد أباح كهنة المعابد أى معابد فى القديم والحديث عرض المرأة وما تحدث به المؤرخين عما كان فى القديم وما ذكره مارتن لوثر عما فى الحديث أمر يندى له الجبين(١) ....

فليس يعيب الذئب أن يفترس الحمل ، ولكنه يعيب الذئب أن يلبس مسوح الرهبان والكهنة ، ويوهم الحمل أن التهامه اياه تقرب

---

(١) لا يخفى على أحد ممن يقرأ أو يسمع الاذاعة بأنواعها المسموعة والمرئية ما كان من أمر ذلك القس الداعية المسيحى سيجورات وهو قس يقدم المواعظ وينصح للناس فى الكنائس والأديرة والمحافل والاذاعة والتلفاز وعلى موجات متعددة شاهده الناس فى مشرق الأرض ومغربها وهو يناظر واحدا من الدعاة المسلمين الشيخ أحمد ديدات . فى مسألة هل الانجيل الذى بين أيدينا كلمة الله .

وكان هذا القس يختال كالطاوس ويجادل بالباطل فى أمور حكم العقل الانسانى فيها ، ويدعى لنفسه أنه كلمة الرب ذاتها تتحرك ، وأن المسيح قد ظهر له ،وأنه بامكانه شفاء المرضى بكلمة الرب ـ على حد زعمه ـ وما هى الا أيام حتى دوت أجهزة الاعلام ذاتها ما وقع فيه هذا القس الداعية الداهية سيجورات منذ مدة طويلة ومارسه واستمرأه حتى كشف الله عن جانب من علاقاته الآثمة .

والأدهى من ذلك أن اللجنة الكنسية التى حاكمته واعترف أمامها بما فعله وهو يذرف دموعا كدموع التماسيح حكمت عليه بأن يتوقف عن موعظة للناس لمدة ثلاثة أشهر ، ثم يعود بعدها الى ما كان عليه . هذا وما خفى كان أعظم .

الى الرب ، أى رب هذا يا قوم يا وحوش يا أبالسة ، يا كهنة المعابد ويارهبان الغواية ••••

فويل للذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله •••• وصدق الله العظيم الذى حذر المؤمنين من هؤلاء وأولئك ، « يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله »(١) •

المطلب الثالث :

عند اليونانيين

لم تكن المرأة عند اليونانيين بأحسن مما كانت عليه عند غيرهم من الأشوريين والبابليين ، والفارسيين •

فقد كان اليونانيون ينظرون للمرأة عندهم على أنها رجس من عمل الشيطان ، فهى فى نظرهم سبب البلاء والكوارث ، فاذا نزلت بهم كارثة أو وقع لأحدهم حادث أرجع ذلك كله وما حل به من لعنات الى غضب الاله على المرأة ، ومادام هو الرجل وهو المسئول عنها فهو محل نزول اللعنات والسخط اللذين ينزلان عليها وعلى من يعايشها ، وكثيرا ما قدموا أبنائهم قربانا للاله والمرأة عند اليونانيين ينظر اليها على أساس أنها مما يتملك ، وعليه فانها تباع وتشترى فى الأسواق ، ببيعها من يملك أمرها الى من يشاء دون أن يكون لها رأى أو خيار(٢) •

---

(١) الآية ٣٤ من سورة التوبة •

(٢) يقول الأستاذ العقاد : وكانت المرأة عند اليونان الاقدمين مسلوبة الحرية والمكانة فى كل ما يرجع الى الحقوق الشرعية ، وكانت تحل فى المنازل الكبيرة محلا منفصلا عن الطريق قليل النوافذ مجروس الأبواب

حتى اللائى يكتسبن منزلة خاصة بانتسابهن الى أسرة معينة لم يكن لهن حق فى أى شىء يتصل بحياتهن .

فمن يتـولى أمر امرأة من ذوات الحسب والنسب ، كان يختـار لها من يشاء من الرجال فيزوجها له ، ويعهد لزوجها بالاشراف على كل شئونها وادارة أموالها ، والتصرف فى كل ما تملك ان كان لها ملك دون موافقتها أو أخذ رأيها .

ولم يكن للمرأة حق طلب الطـلاق ممن زوجوها له ، حتى ولو آذاها واستولى على مالها ، وقد كان هذا هو الغالب .

ومن جعل لها من اليونانيين حق طلب الطـلاق قيد ذلك الحـق بقيود كثيرة بل انه قال فيما وصفه من أمور تنظيمية لذلك ، ان المـرأة لو أرادت الذهاب الى القاضى لتطلب الطلاق فان من حق زوجهـا أن يتربص بها ويتعرض لها فى الطريق ويأسرها ويعيدها الى بيته بالقوة ، وكان من حق الرجل أن يتزوج من يشاء كثر عدد زوجاته أو قل ، وليس لأى امرأة منهم أن تعترض على ذلك حتى ولو أهملها .

ومن هنا فان كثيرا من النساء قد وجدن لهن متنفسا فى ممارسة البغاء ، ولم يكن لأحـد حق فى منعهن من ذلك . بل ان نظم اليونانيين وقتها كانت تعطى المرأة الحـق فى أن يكون لها أكثر من زوج فى وقت واحـد(١) .

= واشتهرت أندية الغوانى فى الحواضر اليونانية لاهمال الزوجات وأمهـات البيوت ، وندرة السماح لهن بمصاحبة الرجال فى الأندية والمحافل المهذبة وخلت مجالس الفلاسفة من جنس المرأة ، ولم تشتهر منهن امرأة نابهة ، الى جانب الشهيرات من الغوانى ، أو من الجوارى الطليقات .
المرأة فى القرآن ص ٤٨ .

(١) يراجع د. محمد عطية الابراشى ، مكانة المرأة فى الاسلام ص ٥

ويحدث المؤرخون أن اليونانيين قد أقاموا ــ بدعوى الحضارة ــ أندية وأماكن يختلط فيها الرجال بالنساء ، وكانت المرأة تمعن فى تبذلها واغوائها لمن يخالطها من الرجال ، ولم يكن ذلك أمرا منكرا عندهم .

بل أن افلاطون صاحب المدينة الفاضلة ، قد نظر للمرأة فى مدينته على أساس أنها ملكا مشاعا ، يختارها من يشاء لتنجب له أطفالا (١) ، ويرسم أحد خطباء اليونان « ديموستين » جانبا مما كانت عليه حال النساء بقوله : اننا نتخذ العاهرات للذة ، ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية ، ونتخذ الزوجات ليلدن لنا الأبناء الشرعيين(٢) .

كما أن البغايا فى اليونان كن يتخذن أماكن خاصة لتكون مقصد رجلات الدولة من السياسيين والحكام ، بل والأدباء والمفكرين .... وشغل الفنانون أنفسهم بالمرأة ، واتخذوا من جسدها العارى ملهما لهم ، فصنعوا التماثيل العارية بدعوى الفن .... حتى فى معتقداتهم الدينية ، لم تسلم لهم هذه المعتقدات من أن تسيطر عليها أمور الغواية والانحراف ....

---

(١) واذا كان هذا هو رأى أفلاطون فان أرسطو قد عاب على أهل « اسبرطة » أنهم يتساهلون مع نساء عشيرتهم ، ويمنحونهن من حقوق الوراثة أو البنائة ، وحقوق الحرية والظهور ما يفوق أقدارهن . ويعزو سقوط «اسبرطة» واضمحلالها الى هذه الحرية وهذا الاسراف فى الحقوق.
يراجع المرأة فى القرآن للأستاذ العقاد ص ٤٩ المكتبة العصرية بيروت .

(٢) يراجع الأستاذ البهى الخولى ، الاسلام والمرأة المعاصرة ط ٤ دار القلم سنة ١٩٨٣م ص ١٢ وما بعدها .
ويراجع الأستاذ أبو النصر العزبى ، المرأة وحقوقها فى الاسلام ص ١٠ .

« أفروديت » آلهتهم ، وزوجة الاهم ، تخـون الاهم ـ على حد قولهم ـ مع رجل من عامة الناس ، وتلد نتيجة هذه الخيانة ، ومن عجب أنهم يقولون عن ولدها من الخيانة ـ أنه اله أيضا ، ويطلقون عليه اسم « كيوبيد » اله الحب عندهم(١) ....

بالهذا الاله وبالهذه الالهة الأم ، وبالهذا الفكر اليونانى ... الذى اتخذ من هؤلاء آلهة يعبدهم ـ انه ليحضرنى فى هـذا المقـام قولة الشاعر :

اذا كان الغـراب دليل قوم لدلهم على جيـف الكلاب

كان هذا هو حال اليونانيين بصفة عامة والمرأة منهم بصفة خاصة وان كان من المؤرخين من ذكر أن المرأة فى اسبارطة كان حالهـا يختلف عن باقى النساء فى بلاد اليونان .

فقد كانت ظروف اسبارطة وكثرة حروبها سببا من أسباب اعطاء أهلها للمرأة بعض الحقوق .

---

(١) يقول الدكتور مصـطفى السـباعى وفى أوج اليونان تبذلت المرأة واختلطت بالرجال ، فى الاندية والمجتمعات ، فشاعت الفاحشة حتى أصبح الزنى أمرا غير منكر ، وحتى غدت دور البغـايا مراكز للسياسة والأدب ثم اتخـذوا التماثيل العـارية باسـم الأدب والفن ، ثم اعترفت ديانتهم بالعلاقة الآثمة بين الرجل والمرأة فمن آلهتهم « افروديت » التى خانت ثلاثة آلهة وهى زوجة اله واحد ، وكان من أخدانها رجل من عامة البشر فولدت « كيوبيد » اله الحب عندهم ! ثم لم يشـبع غرائزهم ذلك حتى انتشر عندهم الاتصال الشاذ بين الرجل والرجل ، وأقاموا لذلك تمثال « هوموديس و أرستوجتين » وهما فى علاقة آثمة ، وكان ذلك آخر المطاف فى حضارتهم فانهارت وزالوا .

المرأة بين الفقه والقانون ط ٥ ص ١٤ .

فلم يعطوها ما أعطوها من حقوق من باب احترامها أو أحقيتها ، ولكنهم اضطروا لذلك بسبب كثرة خروجهم للحروب ، وعليه فانها لابد لها من أن تواجه أمور الحياة ومتطلبات شئون الأسرة فى غيبة الرجل ، وخصوصا أن كثيرين ممن يخرجون للحروب لا يعودون .... من هنا جعلوا لها أحقية ابرام التعاقدات المالية ، والتصرف فى شئون الأسرة . وأعطوها حق الميراث ، وتنشئة الأبناء وجعلوا لها الحق فى البائنة من تركة الرجل — والبائنة كما هو معروف ما يدفعه الأب لمن يأتى ليتزوج ابنته « الدوطة »

هذه الأمور اعتبرها بعض المؤرخين حرية أخذتها المرأة الاسبرطية وتميزت بها عن مثيلاتها فى أثينا وغيرها من المدن اليونانية .

وكان أهل اليونان وفلاسفتها يعيبون على أهل اسبارطة ما أعطوه للمرأة من هذه الحقوق والحريات ...

حتى ان أرسطو نفسه قد أرجع أسباب انحلالها وسقوطها الى ما أعطاه الاسبارطيون للمرأة من حقوق وحرية(٢) .

هذه هى نظرة اليونانيين الى المرأة ووضعها عندهم .... وهو وضع ناطق بما كانت عليه حالها ...

---

(١) وقد جاء على لسان أرسطو مقالته . الطبيعة لا تخلق نساء الا عندما لاتقدر أن تخلق رجالا .

ونقل عن سقراط مقالته : تستطيع الشمس أن تجفف الأوقيانوس ولكنها لا تجفف دموع المرأة .

ومقالته : المرأة منبع جميع الشرور وحبها لى يفزعنى أكثر من كره الرجل لها ، والرجل الذى يبحث عن امرأة ليتخذها زوجة يكون مثله مثل السمكة التي تسعى للشرك بنفسها .

المطلب الرابع :

عنـد الرومـــان

المرأة عند الرومان مما يملكه الرجل ويتصرف فيه بمحض ارادته اذا تفضل الرجل وقبل ، فاذا لم يقبل فمصيرها الموت المحتوم ... فى مرحلة الطفولة ... وحين يولد المولود ذكرا كان أو أنثى يوضع عنـد قدمى زوج المرأة التى ولدت ... فاذا أخذ الرجل هذا المولود وضمه اليه كان ذلك ايذانا بقبوله اياه الى أسرته ... وكان هذا المولود محظوظا. وان لم يرفعه اليه وتركه فان ذلك بداية هلاك هذا المولود اذ يؤخذ الى ساحات المعابد أو منتديات القوم ويلقى هناك فان رغب فيه أحد أخذه اليه ، وان لم يرغب فيه أحد ترك حتى يموت ألما وجوعا دون أن يرثى أحد لحـاله ...

وكان من يترك فيموت فى غالب الأحوال من الاناث اللائى لم يكن يرغب فيهن أحد ، سواء من ولدن له أو من وضعن أمامه فى المعـابد والمنتـديات ...

وهكذا كانت سلطة الرجل مطلقة يدخل فى أسرته من أراد ويخرج

مجلة الاخاء ٨/٨٠٩ ومجلة المصور العدد ٢٣٩ .

وقد ذكرت أساطير اليونان أن امرأة تسمى « باندورا » هى ينبوع جميع آلام الانسان ومصائبه .

يراجع حقوق المرأة فى الاسلام ، محمد بن عبد الله بن سلمان عرضه ط ٣ ص ١٩ سنة ١٩٨٣م .

منها من لم يرد ، وليس للزوجة الحق فى ابداء رأى أو ضم مولودتها الى صدرها ...

بل كان للرجل الحق فى أن يبيع من شاء من أبنائه وظل هذا الأمر هكذا حتى كان عصر الازدهار القانونى — كما يسميه المؤرخون — .

فكان من نتيجة هذا الازدهار القانونى أن قيدت حرية الرجل بالنسبة لبيعه أبناءه ، فكان اذا باع ابنه ثلاث مرات ، كان لهذا الابن بعدها حق التحرر من سلطة أبيه ولم يعد لهذا الأب الحق فى بيع هذا الابن الذى عاد اليه بعد بيعه ثلاث مرات .

أما البنت فكانت سلطة الرجل حيالها مطلقة ، اذ كان من حقه أن يبيعها مائة مرة مادام حيا وليس لها حق الخروج عن سلطانه ...

وكانت سلطات كبير العائلة تمتد الى كل بنات ونساء العائلة يبيع من شاء من بناته أو زوجات أبنائه مهما نزلوا — ولم يقف الأمر عند حد أن له الحق فى بيعهن ، بل كان له الحق فى نفيهن أو تعذيبهن أو حتى قتلهن ، وليس لأحد حق الاعتراض عليه ...

لقد تعددت سلطة كبير العائلة على كل نساء العائلة من سلطة حماية الى سلطة امتلاك وتصرف فى كل من يملكهن ... وظل هذا الحق لكبير الأسرة حتى عصر الازدهار القانونى الذى صدر فيه قانون جوستنيان فى القرن السادس الميلادى — وقد حد هذا القانون من سلطة كبير العائلة وقيدها فلم تعد له سلطة بيع أو قتل وانما له فقط حق التأديب على كل نساء الأسرة .. ولم يكن لأحد من الأسرة قبل صدور قانون جوستنيان أى حق فى أموال الأسرة ، بل كلها ملك لكبير الأسرة — وكانوا يطلقون عليه رب الأسرة — فكان يتصرف فيها كيف يشاء .....

بل انه كان يزوج الأبناء والبنات دون أن يأخذ رأى أحد ويعدم

صدور قانون جوستنيان تحرر الأبناء ، أما البنات فلم يكن لهن حق التصرف فيما يعطيهن رب الأسرة من أموال طوال حياته ، بل وبعد موته تنتقل الولاية على البنات والنساء لوصى من الأوصياء الذين تحددهم القوانين ... ولم يكن للمرأة حق الخروج عن ارادة هذا الوصى ، الا اذا باعت نفسها لشخص آخر يتولى أمرها .

وحتى فى عهد قسطنطين ، الذى أعطى المرأة ، الحق فى امتلاك الأموال التى تؤول اليها عن طريق ميراث أمها ، وفصل بين هذه الأموال وبين ما يعطيه لها أبوها ... ولكنه مع ذلك كله كان للأب حق التصرف فى مال ابنته كيف يشاء .

وعند خروجها الى سلطة رجل آخر وهو الزوج كان الأب يحتفظ بثلث أموال ابنته نظير أنه سيسمح لها بالخروج الى سلطة هذا الزوج ...

يالضيعتها هذه المسكينة .....

انها قد خرجت من سلطة الى سلطة أخرى ... ان المرأة اذا تزوجت عندهم فانها تعقد مع من سيتزوجها عقدا أطلقوا عليه « اتفاق سيادة » أى أنها قد دخلت تحت سيادة رجل جديد هو زوجها .

وكان هذا العقد يتم اما على يد الكاهن ، أو بأن يشترى الرجل المرأة التى يريد أن يتزوجها ... أو بعد معاشرة لها على مدى سنة كاملة بعد أن يتزوجها .

بهذا تخرج الفتاة من سلطة رب أسرتها وتقع تحت سلطة زوجها . لكنه على كل حال قد تغيرت السلطة بعد قانون جوستنيان الى سلطة حماية بعد أن كانت سلطة ملك ...

ولقد نظمت قوانين الألواح الإثنى عشر المعاملات ولكنها جعلت المرأة ممن ليست لهم أهلية ..

والأهلية فى هذه القوانين نوعان أهلية حقوقية وأهليةفعلية واقعية .

والأهلية الحقوقية لم يكن للمرأة حق فيها سواء أكانت بنتا أو كانت زوجة ... فهى فى كل أحوالها فاقدة للأهلية الحقوقية .

ولم يكن حظها فى الأهلية الفعلية بأحسن منه فى أختها . فهى أيضا فاقدة للأهلية الفعلية وليس لهن حق اكتسابها الا بموافقة الرجل ....

فاذا تصرفن بغير اذنه سواء أكان رب الأسرة أو الزوج ــ فان تصرفهن لا يعتد به ...

وفى اجمال وباختصار كانت حياة المرأة الرومانية هبة من الرجل من يوم ولدانها وحتى بداية القرن السادس ، حياتها ذاتها ...

وبعد ذلك كانت أهليتها هبة منه ان شاء الرجل عوملت على أنها انسان له حق التملك والتصرف وان لم يشأ سلبت كل الحقوق ...

فالمرأة عند الرومان أداة اغراء وافساد لذا فهى لابد وأن تكون محتقرة مستذلة ، ولقد عقد مؤتمر كبير لبحث شؤن المرأة فى « رومية » وأصدر هذا المؤتمر قرارات خاصة بالمرأة ومنها على سبيل المثال :

١ ــ المرأة موجود ليس له شخصية انسانية ، وأنها لا تستطيع أن تنال الحياة فى الآخرة .

٢ ــ يجب على المرأة ألا تأكل اللحم ، وألا تضحك ، ويجب عليها ألا تتكلم .

٣ ــ المرأة رجس من عمل الشيطان ، ولهذا فانها تستحق الذل

والهوان وتنفيذا لهذه القرارات وضع الرومان قفلا على فم المرأة لمنعها من أن تتكلم .

فكانت تظل والقفل على فمها سواء فى بيتها أو خارجه (١) ...

هذا قليل مما كانت عليه حال المرأة عند الرومان .

المطلب الخـــامس :

فى شـــبه القارة الهندية

وأعنى بشبه القارة الهندية هنا المنطقة التى تضم الهند والصين وبلاد التبت وغـــيرها من هذه المنطقـــة التى تقع فى جنوب آسيا وكذا جنوبها الشرقى .

---

(١) يراجع فى ذلك كله .

المرأة وحقوقها فى الاسلام ، أبو النصر مبشر الطرزى ص٩ ومابعدها

عمل المرأة فى الميزان د. محمد على البار ط ١٩٨٤ ص ٢٠ وما بعدها .

تطور المرأة عبر التاريخ الأستاذة باسمة الكيال ص ٣٨ وما بعدها ط سنة ١٩٨١م .

عمل المـرأة وموقف الاســلام منه عبد الرب نور الدين ط ســنة ١٩٨٦م ص ٣٠ .

المرأة بين الفقه والقانون د. مصطفى السباعى ط ٥ ص ١٥ومابعدها

كما ذكر الأستاذ العقاد فى كتابه المرأة فى القرآن ص ٤٩ ومابعدها أن مذهب الرومان الاقدمين كمذهب الهنـــود الاقدمين فى الحـــكم على المرأة بالقصور ، حيث كانت لها علاقة بالآباء أو الازواج أو الأبناء ، وشـــعارهم الذى تداولوه ابان حضارتهم أن قيد المرأة لا ينزع ، ونيرها لا يخلع .

ولم تتحرر المرأة الرومانية من هذه القيود الا يوم أن تحرر منها الارقاء ، على أثر التمرد ثورة بعد ثورة وعصـــيانا بعد عصـــيان ، فتعذر استرقاق المرأة كما تعذر استرقاق الجارية والغلام .

فهذه المنطقة كلها تكاد تتطابق أوضاع المرأة فيها لتقارب موقعها وتجاور عاداتها وشيوع معتقدات متوافقة فى هذه المنطقة بوجه عام .

الفرع الأول : المرأة فى الهند

لم تكن المرأة فى الهند بأحسن حال مما كانت عليه فى البلاد الأخرى بل ان الباحث ليجد أن المرأة فى الهند اخضعت بدعوى دينية تعبدية زيادة على اخضاعها طبقا لتقاليد وعادة وأوضاع اجتماعية ...

فلقد كانت مملوكة منذ ولادتها وحتى يتم احراقها مع زوجها ان أرادت لنفسها الشرف والخلاص . والا فهى تنتقل من سيد الى سيد حتى توارى التراب ...

لقد كانت مملوكة لأبيها ولم تكن بنتا لأبيها،وفرق كبير بين الوصفين فهى والمتاع سواء ، بل هى أثقل على نفس أبيها وأهون عليه من كل ما يملك من متاع ... فاذا جاءه من يطلبها قدمها له بل ودفع له فوقها مالا حتى يرغبه فى أخذها جارية له وملكا ليمينه يتصرف فيها كيف يشاء ... فاذا وافته المنية حكم عليها أن ترافقه موته وتحرق معه وتدفن بجوار جثته حتى تكون له خادمة أبدية (١) ...

---

(١) ذكر الاستاذ العقاد فى كتابه المرأة فى القرآن ص ٤٨ أنه لم يكن للمرأة فى شريعة ما وحق الاستقلال عن أبيها أو زوجها أو ولدها ، فاذا مات هؤلاء جميعا وجب أن تنتمى الى رجل من أقارب زوجها ، وهى قاصرة طيلة حياتها ، ولم يكن لها حق فى الحياة بعد وفاة زوجها ، بل يجب أن تموت يوم موت زوجها وأن تحرق معه وهى حية على موقد واحد واستمرت هذه العادة حتى القرن السابع عشر حيث أبطلت على كره من رجال الدين الهنود . وكانت تقدم قربانا للآلهة لترضى ، أو تأمر بالمطر أو الرزق ...

انها تتدرج فى ذل مسلوبة الخيار والارادة منذ ولادتها وحتى آخر حياتها انها ممتهنة عندهم بخسة وخصوصا اذا كانت فى مخاضها ...

انها اذا ولدت أصابت نجاستهـا كل من يخالطهـا بل ومن يدخل مسكنها وتظل هكذا هى ومن يخالطها مدة طويلة ...

لقد قضت الديانة البراهمية المأخوذة عن « فيديا » أن المرأة مخلوق ممتهن وهى عبدة للرجل لا يجوز له أن يجلسها معه لتأكل حتى ولو كانت زوجته أو بنته أو أمه ، فاذا كلمته يجب أن تكلمه بخشوع واحترام ومن عجب أن المرأة نفسها تجد فى ذلك متعة فكم هى فخورة أنها زوجة لرجل لا يكلمها ، ولا يحادثها فى أمور أسرتيهما ، فاذا تنـازل الرجل وحدث زوجته امتهنته هذه الزوجة(١) ...

وفى بعض المناطق الهندية شجرة يجب أن يقـدم لها أهل المنطقة فتاة تاكلها كل سنة . وجاء فى شرائع الهندوس : ليس الصبر المقدر ، والريح ، والموت ، والجحيم ، والسم ، والافاعى ، والنـار ، أسـوأ من المرأة ويراجع د/ مصطفى السباعى ... المرأة بين الفقه والقانون ص١٨

(١) ذكر جميل بيهم أشياء كثيرة عن انحطـاط المـرأة فى الهيئة الاجتماعية البرهمية ، وأنها كانت عبده للرجل ، لايجوز لها أن تكلمه الا باحترام ، ولا أن تواكله على مائدة ، بل ولا أن تتجرأ أن تلفظ اسمه

وبلغ الافراط فى امتهانهـا أنهم صـاروا يحتقرون الرجل الذى يحادث زوجته محادثة عائلية ، والنساء أنفسهن بتن يمتهن بعلا كهذا ، بل بلغ منهن أن الارامل استسلمن لعـادة هى من ضروب الجنـون لبث أحزانهن على فقد بعولهن ، وهى الاحتراق عمدا بالنار بعد موتهم .

يراجع المرأة فى التاريخ والشرائع ..

وهكذا كانت صورة المرأة فى شريعة «الفيدا» حقيرة المنزلة مجردة عن الفضيلة وجاء فى الفيدا : لما خلقهن « مانو » وهبن حب الفرش ، والحلى ، والشهوات ، والغضب ، والغدر ، والفجور ، والتجـرد من الشرف وسوء السلوك •

ولا مراء فى كونهن نجسات كاذبات ، وغرض أغراض المرأة اغراء الرجل على الفعلة الشنعاء ••• والمرأة لا تصلح للاستقلال ، ويجب عليها أن تخدم زوجها كما لو كان الها ، ولذا فانه كان عليها أن تخاطبه خاشعة بقولها له : يا مولاى ، وأحيانا أخرى يا الهى ، ويلزمها أن تمشى خلفه بمسافة ، وتأكل ما يتفضل عنه ويبقى من طعامه (١) •

واستمر حال المرأة الهندية هكذا ردحا من الزمن ، حتى بعد أن تغيرت عادات كثير من الشعوب وتبدلت معتقداتهم ، وأوضاع حياتهم الاجتماعية والثقافية ، باختلاطهم بالمستعمرين الأجانب ، الذين نقلوا معهم كثيرا من ثقافات بلادهم الأصلية الى البلاد التى احتلوها ، وأقاموا بها وجعلوها مناطق نفوذهم ••

والهند من المناطق التى خضعت للاستعمار الانجليزى فترة طويلة

---

(١) تقول مجلة الاخاء بعد حديث طويل فى عـددها ٥ ص ٣٢٢ وما بعدها هذا أس الدين البرهمى ، وعليه شـيدت تعـاستهن ، وان زواج الاطفال ، وشقاء الارامل ، وهى أمور طبيعية فى هيئة اجتمـاعية وظيفتهن فى النسل •

وقد يحسب ماحل بهن قليلا فى جانب كونهن شريرات دنيئـات وعقبة كأداء فى طريق السماء •

يراجع أيضا البهى الخولى ، الاسـلام والمـرأة المعاصرة ص ١١ وما بعدها •

وهؤلاء المستعمرين وان استطاعوا تغيير كثير من ثقافات أهل الهند الا أنهم لم يؤثروا كثيرا فى نظر الرجل الهندى الى المرأة •

ففى بداية القرن التاسع عشر وخلاله نرى أن وضع المرأة الهندية ما زال كما كان عليه من القدم •

اللهم الا فى المناطق التى دخلها الاسلام الحنيف ، وصحح مفاهيم أهلها ووجههم الوجهة الاسلامية النقية التى تعطى لكل انسان حقه من غير مفاضلة على أساس من جنس أو نوع ، أو لون ، أما فى المناطق التى لم يدخلها الاسلام من بلاد الهند فان المرأة ظلت فيها تابعة للرجل أبا أو زوجا أو ابنا أو قريبا ، ولم يكن لها حق التصرف فى أمرها وشئونها الخاصة (١) •

ولقد عانت المرأة فى الولايات الهندية الواقعة فى الشمال الغربى من بلاد الهند عانت كثيرا خصوصا اذا كانت من نساء الطبقة المتميزة فى وضعها المادى أو الأدبى ، وذلك حين تصبح امرأة منهن أرملة •

انها اذا غدت أرملة فانها تختار واحدا من أمرين :

الأول : أن تبقى بعد زوجها ولا تحرق معه ، وحينئذ تعامل باحتقار شديد وامتهان من جميع أهلها ، اذ هى قد خالفت ما عليه العادة وكانت

---

(١) جاء فى كتاب الهندوسى المقدس لمنوسمرتى ، وهو خلاصة التشريع الهندوكى عربه عن السنسكريتيه ، الأستاذ احسان حقى ، دار اليقظة العربية بيروت ص ٥٢٥ •

اذا توفى الخطيب بعد أن يكون قد دفع المهر ، تعطى خطيبته الى أخيه اذا رضيت هى بذلك •

نقلا عن أحكام الأسرة للأستاذ الدكتور محمد بلتاجى •

هذه العادة تقضي بأن تموت معه ، فان لم تقبل غدت مصدر شؤم ، وتبعد عن أهلها وأقاربها حتى لا تجر عليهم ما جرته على زوجها من موت ،وتصير دنسة تدنس كل من يقترب منها .

أما الأمر الثاني : فهو أولى الأمرين عند الهنود وألزمهم للزوجة التي يموت زوجها ، وقد نصت كتبهم المقدسة على أنه يحسن بالزوجة أن تلقي نفسها على الحطب المعد لاحراق جثة زوجها .

فكانوا اذا وضعوا الجثة على الحطب تتقدم الزوجة مبرقعة ، فيميط البراهمة « الكهان » برقعها ، وتنزع حلاها وزينتها عنها ، وتوزع على أقاربها وذويها ، ثم تفك ضفائرها . ويأخذ كبير البراهمة « الكهان » بيمناها ويدور حول الحطب ثلاثا ، ثم ترقى على الحطب فترفع رجلي زوجها الى جبهتها ، اشارة الى خضوعها له ، وتتحول فتجلس عند رأسه واضعة يدها اليمنى عليه ، فيضرمون النار ويحرقونها مع جثة زوجها ، وهم يزعمون أن ذلك يورثها النعيم مع زوجها ، فتقيم معه في السماء .

وأنها تطهر بموتها هذا أهل أمها وأهل أبيها واهل زوجها ، وتطهر زوجها أيضا من كل ذنوبه ، ولو كان قد قتل في حياته صديقا حميما أو برهميا « كاهنا » تقيا ، وتصير من أطهر النساء وأشرفهن اسما ، وأحسنهن صيتا (١) .

يا لهذه المسكينة ، انها تعيش لغيرها تابعة ، وتموت أيضا لغيرها تابعة ، لتطهر غيرها ، من أهلها أو زوجها ....

ويا لهؤلاء الكهنة الغلاظ الجهلة الأشرار ، الذين قتلوا الكثيرات بزيغ فكرهم وحماقة معتقداتهم ...

---

(١) تراجع مجلة المقتطف العدد ١١ ص ١٣٢ ، ١٣٧ .

لقد بلغ هؤلاء مبلغا من الحماقة والزيغ والغلو ، جعل المستعمر الانجليزى نفسه حتى منتصف القرن التاسع عشر يتحاشى الاصطدام بهم أو التصدى لمعتقداتهم ، أو حتى منعهم احراق النساء ...

لقد وصل بهؤلاء الأشرار أن أحرقوا خلال عشر سنين حوالى ستة آلاف امرأة ... وذلك خلال المدة من ١٨١٥م — ١٨٢٥ ...

ولما تفاقم الأمر حاول الانجليز ترشيد الناس والعمل على انهاء هذه العادات الفاسدة الخطيرة الشريرة ، واستمروا يعملون حتى أمكنهم منع هؤلاء الكهان من القيام باحراق النساء مع جثث أزواجهن ، وان كان الكهان لا يعدمون حيلة — انهم أبالسة الانس — لقد لجؤا الى ممارسة هذه الفعلة فى المعابد وبعيدا عن أعين السلطات الانجليزية ...

وحتى مع محاولة ترشيد الناس وتغيير فكرهم ، فلا زالوا يصرون على الالتزام بما جاءت به نصوص تعاليم « مانو » قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام بخمسمائة سنة ، والتى تنص على ما يأتى :

« ... والزوجة يجب أن تذلل جسدها باقتصار على أكل الجذور والأزهار والأثمار ، وأن لا تتلفظ باسم رجل بعد موت سيدها ، وأن تغضي عن كل سيئة تصيبها ، وأن تعمل أشق الأعمال،وتجتنب كل ملذة من ملذات الجسد،وتمارس الفضائل التى يمارسها اللواتى لا يقترن الا ببعل واحد ، فكل امرأة فاضلة تعيش بالزهد والتقوى تصعد الى السماء وكل امرأة تستهين بزوجها فتقترن بغيره بعد موته فما نصيبها الا الذل والهوان فى الدنيا ، والطرد من عرش سيدها فى الآخرة » (١) .

ويذكر أحد الباحثين من المسلمين الهنود أن المرأة الهندوسية قد

---

(١) المرجع السابق .

جابت حقبة من الزمن كانت فيا كالسلعة تباع وتشترى فى الأسواق،بعد أن تتدنس من كثرة الأيدى التى تتداولها،وان تكن عادة وأد البنات لم يعرفها الهندوس ، فقد عرفت بينهم عادة أشد ضررا وفتكا وهولا ، هى احراق الأرملة عند موت زوجها (١) •

واذا كان وجه الدنيا قد تغير فلا تزال المرأة الهندية تعانى مما ورثته من هؤلاء الكهنة فما من امرأة تمشى فى أى مكان ــ فى الهند أو خارجها ــ الا وما يقارب نصف جسدها قد تعرى ، فلا تكاد تستر بثوبها الطويل الذى يلفها الا القليل من جسدها الذى تعرى وسطه ولا أرى ذلك الا لونا من ألوان الامتهان لها ولهذا الجسد الذى غدا محطا يحط عليه الذباب من كل حدب،ان هذه العادة الخبيثة قد استشرت بين نساء الهند جميعهن حتى المسلمات ، ولا تتعجب ان علمت أن منهن من تخلع ملابس احرامها بالحج أو العمرة بعد أداء الحج أو العمرة ثم تلبس ثوبها الذى يترك وسطها مكشوفا ، ولا تبالى بالناظرين أو العابثين ، حتى المسلمات ــ لا حول ولا قوة الا بالله ــ ما أحوج أولئك الى من يعلمهن حرمات الاسلام ، ويبين لهن أن الله تعالى ألزم المسلمة أن تستر جسدها ، ولا يجوز لها أن يظهر منه الا ما حدده حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين علم السيدة أسماء بنت أبى بكر الصديق ــ رضى الله تعالى عنهما ــ أن المرأة اذا بلغت المحيض فلا يجوز أن يظهر منها الا وجهها وكفيها •

ان ذلك احترام المرأة لنفسها واحترام المجتمع لها • وتوجيه الاسلام وحدوده •••

---

(١) محمد قطب الدين ، مجلة الإخاء ١٩٦٢م / ٦٩٤ وما بعدها •

ان المرأة الهندية حتى هذا العصر لا تزال تعانى من ألوان التفريق والخضوع والابتذال بل والاستخفاف بها وامتهانها .

انها تطالب أن تقوم بدفع المال لمن يريد أن يتزوجها ، والفقيرات منهن عليهن أن يؤدين أى عمل من الأعمال لتحصيل هذا المال الذى ستدفعه لمن يتقبل عليها ليتزوجها .

ان همها هو جمع المال ، ولا يعنيها من أى باب تدخل أو تخرج المهم أن تخرج ومعها مال لتدخل به تحت امرة رجل ..

ان القلم ليتوقف عن تسطير حالهن فى بلاد الدنيا وخصوصا ما شاهدته فى بلاد الخليج من حال هؤلاء اللائى أضاعتهن بلادهن فى باقى بلاد الدنيا بغية الحصول على القليل بل على أقل القليل من المال ، فى أى سن وتحت أى ظروف ..

وكم قرأت عن كثيرات من اللائى قمن باحراق أنفسهن لأنهن لم يستطعن جمع مال أو كسب شىء يعينهن على أن يتزوجهن أحد ، لا تكاد تخلو الجرائد من مثل هذه الأخبار ..

لقد هالنى يوما سافرت فيه الى بلد خليجى ، ونزلت فى أحد مطاراته واذا بى أرى جمعا منهن يساق كالقطيع وكل واحدة منهن معها ورقة كتبت عليها اسم من استقدمها أو من ستخدم عنده ، والمكتب الذى استقدمهن قد أرسل اليهن فى المطار واحدا قد جمع أوراقهن وهن يتبعنه فى ذلة وخشوع ، عيونهن على يديه أين تشير فيتجاب لها ، انهن جميعا رهن اشارة ، تسوقهن الى حيث يختار ... ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ...

ان لكل منهن قصة وان كان يجمعهن جميعا قصة واحدة لا تكاد تختلف ، وهى جمع مال تتزوج به ، تدفع هذا المال لرجل يقبل أن يدخلها تحت ولايته ...

ان الحديث عن المرأة الهندية وحالها حتى يومنا هذا يطول ، وسأترك خاتمة الحديث لواحد من هؤلاء الذين عايشوا المرأة الهندية وساكنوها بلادها ووقفوا على حالها وسطروا ما تعانيه يقول محمد قطب الدين خان : فمن العقبات التى تصطدم بها الفتاة الهندية منذ النشأة الأولى ، هذا الاعتقاد الفاسد ، وهو أن ولادة البنت شؤم يلحق العائلة بأسرها ، الى جانب ذلك اعتناء رب الأسرة وعائلها بحالة الصبى وتفضيله على البنات اتباعا للفكرة الشرقية الخاطئة والمتمثلة فى أن الرجل سيد المرأة وأنها أسيرته مدى الحياة .

وهنا نقطة أخرى أشد ضررا ، عادة تزويج الفتيات فى سن الحداثة أى فى سن الخامسة والسادسة من العمر ، فقد دلت الاحصاءات الأخيرة على أن فى الهند أكثر من ستة وعشرين مليون أرملة ، ذلك أن العادة القبيحة المتبعة هى أن تظل المرأة أرملة مدى الحياة ، وليس أشد روعا من أن تعلم بأن الهند تحتمل حتى اليوم ما يزيد عن خمسة عشرة ألف طفلة من الأرامل وأربعمائة ألف فتاة من الأرامل اللواتى لا يزيد سنهن عن الخمسة عشر ربيعا ... وقد تكون الأرملة مثل عار بالغ للأسرة ، فتظل فى أهلها بغيضة منبوذة الى الأبد ، ينظر اليها بعين الاحتقار والازدراء ، بل انها لهوان شأنها وتفاهته لا تأكل الا وجبة واحدة فى اليوم ، ولا تتشح الا قميصا واحدا ، وقد لا تنام الا على الحصير مكلفة بأداء العمل الشاق فى المنزل ، وقد تحلق رأسها مبالغة فى الدلالة على أنها أرملة ، بينما يزيد فى حاجتها وفى اعسارها أن قانون الأحوال

الشخصية يمنعها من أن ترث زوجها ، وأن تملك لنفسها بعض تراثه(١) .

هذا ما كتبه هذا الكاتب عن المرأة الهندية وحالها حتى منتصف القرن العشرين .

وان كان هناك ما يسمع له صوت من النساء أو يعتلى المناصب فهذا قليل قليل ووراء ذلك أمور وتاريخ وجهاد مرير .

واذا كانت امرأة هندية قد قدر لها أن تكون رئيسة وزراء فى

---

(١) محمدقطب االدين مجلة الاخاء ١٩٣٢م / ٦٩٤ وما بعدها وقد كتبت احدى نساء الهند السيدة ماتاى فىالبلاغ الاسبوعي العدد الصادر فى ١٤ أغسطس عام ١٩٢٩م مايلى :

قانون الانتخابات عندنا يساوى بين الرجل والمرأة غير أن هذا لاينفع المرأة الهندوسية ، لأن شرط الانتخاب هو الملكية ، ولايجوز للمرأة أن تكسب أو تملك أو ترث ...

وتقول : ان مدارسنا تدار وفق النظام الانكليزى ، ولكنها غير ملائمة لبنات الهندوس ، وليس لدينا نساء غير متزوجات ، بل كل هندوسية لابد أن تتزوج ...

ونحن نطلب أيضا أن نرفع سن الزواج ، فان بعض البنات من طبقة البرهمانيين فى مدارسنا مثلا يتزوجن وهن فى العاشرة من عمرهن. ومطلبنا أن تجعل سن الزواج ١٤ للبنات و ١٨ للأولاد .

وكتبت السيدة لايدى شاترجى وهى زوجة ممثل الهند فى عصبة الأمم عام ١٩٣٠ م فى السياسة الاسبوعية العدد ٢٣٠ سنة ١٩٣٠م .

ومع أن عدد المتعلمات فى الهند قليل نسبيا ، الا أنه يوجد أمل كبير فى انتشار التعليم بين الهنديات فى القريب العاجل .

النصف الثانى من القرن العشرين فانه كان لزاما عليها أن تنظر فيما تعانى منه بنات جنسها ...

ان رجال الدين الهندوكى وغيره من المعتقدات التى تعد بالمئات من الديانات فى الهند ، لايزال رجال هذه الديانات وكهنتها مصرين على الزام المرأة الهندية بما جاءت به الفيدا ، وأورده قانون مانو .

الفرع الثانى : المراة فى الصين :

ان حال المرأة فى شبه القارة الهندية أو منطقة الهند الصينية — حال واحد ، فلقد عانت المرأة فى ظل شريعة الفيدا ، التى يدين بها الكثيرون فى الهند والصين ، واتباعها من البراهمة فى كل من البلدين.

واذا كان قانون منو الهندى قد فرض على المرأة الهندية فروضا وألزمها بأن تكون تابعة ، طوال حياتها ، لأبيها ثم زوجها ، ثم ابنها أو أحد من أقاربه .

فان كنفوشيوس ٥٥١ — ٤٧٩ ق.م قد فرض على المرأة الصينية التبعية لزوجها بعد أبيها ، ثم لابنها من بعده وهكذا .

فالرجل طبقا لتعاليم كنفوشيوس له الرئاسة ، فهو الذى يصدر الأوامر والمرأة تابعة له وعليها أن تطيع أوامره وله عليها كل الحقوق فقد جاء فى تعاليمه : الرجل رئيس فعليه أن يأمر والمرأة تابعة فعليها الطاعة ، ومن المقضى أن تكون أعمالهما مثل أعمال السماء والأرض ، متممة لبعضهما ، تعاونا على حفظ نظام الكون،والمرأة فى المجتمع مدينة لزوجها بكل ما هي عليه .

كما نقل عن كنفوشيوس قوله : ان المرأة التى تفقد زوجها تصبح سيدة نفسها ، وعلى الفتاة أن تطيع أهلها كأخيها البكر الكبير ، وتكون سكنى الأرملة واقامتها تحت اشراف ومراقبة الأكبر سنا من أولادها ، الذى يتمكن من أن يحميها من الأخطار التى تتهددها بسبب ضعفها .

واذا كانت المرأة الهندية قد عومات على أنها سلعة تباع وتشترى من غير أن يكون لها الحق فى ابداء رأى حيال من سيشتريها ، فان المرأة الصينية أيضا كانت كأختها الهندية فى هذا الأمر ، فقد ظلت حتى القرن التاسع عشر تباع وتشترى .

وكانت كما يقول ليون أدنسور : ان الينت فى الصين كانت تباع وتشترى حتى القرن التاسع عشر الميلادى فكان يجب على الزوجة الصينية أن تتبع زوجها كالرقيقة ، بل تتجاوز ذلك فتكون رقيقة لأهل زوجها .

واذا تكلمت الزوجة بحق أقاربه كلاما سيئا ، فالزوج الحق بقتلها ، أو يجلدها بالعصا كعقاب لها على ما اقترفت من ذنب(١) .

ويذكر وستر مارك أن وضع المرأة عند البوذيين كان وضعا سيئا فقد كانوا ينظرون اليها على أنها من الأخطار الجسيمة التى تعترض حياة الرجل باغوائه وايقاعه فى شركها شرك الشيطان ، ولهذا فانهن لم يكن يسمح لهن بأن يؤدين الصلاة فى الهيكل ، فالهيكل عندهم مكان مقدس وهى شيطانة ، ولا يحق للشيطان أن يدخل الهيكل .

الى هذا الحد كانت نظرتهم الى المرأة ، ومعاملاتهم لها . واذا كان النساء قد منعن من دخول الهياكل المقدسة عندهم،فانهن قد منعن

من الخروج من المنازل الا بأمر واذن من الرجل الذى له حق الاشراف عليهن أيا كان أو زوجا أو ابنا •

واذا خرجن فانهن يخرجن فى عربات مغلقة اغلاقا محكما حتى لا يغادرنها وتتناسب درجة التحكم فى النساء تناسبا طرديا مع مكانتهن فى المجتمع ، ومالهن من الغنى والثراء •

فقد كانت ذوات الثراء منهن تحسد الفقيرات على ما يتمتعن به من حرية الخروج سافرات من غير رقيب ، أو فى سيارات مقفلة لا تفتح وكأن اللائى بداخل هذه السيارات معتقلات بلغة العصر الحاضر ، الذى يهتم بمن يعتقل ، يحرسه ولا يغفل عنه ، واذا دعت الضرورة لنقله من مكان لآخر فان الدنيا كلها تقف منتبهة وتحرس السيارة التى تنقله وهى سيارة مظلمة ، خوفا من العيون التى تسترق نظرة أو وعدا ، ان هؤلاء النسوة الصينيات لم يكن من حقهن معرفة أى شىء عن كيانهن ومستقبلهن ، ومن سيعاشرن ويتزوجن ، انهن ينتظرن من سيسلمن له من أزواج طبقا لرغبة آبائهن أو اخوانهن وفقط •

فالمرأة الصينية وعلى حد قول بعض المؤرخين ملك للأب والأخ يزوجاها بدون مشورتها ، ولا يخبرانها عن اسم زوجها •

ويسبق هذا الزواج خطبة ، والخطبة عندهم تأخذ حكم عقد الزواج ، فمتى تمت خطبة الفتاة ألزمت بالزواج ممن خطبها ، ولا حق لها فى الاعتراض وتتم الخطبة والفتاة فى سن صغير ، دون الباوغ ، وعند بلوغها يتم الزواج ••• فاذا مات الرجل الذى خطب فتاة ، فانه يحل بهذه الفتاة الايذاء — ولا يحق لها أن تخطب لآخر ، وتظل بقية حياتها من غيرزواج •• والأمر مغاير بالنسبة للرجل الذى تموت مخطوبته ، فانه بامكانه خطبة امرأة أخرى وزواجها •••

كما أن النظم الصينية القديمة كانت تبيح للرجل أن يتزوج من شاء من النساء دون تحديد عـدد ، فى الوقت الذى منعت المرأة التى يموت من خطبها من الزواج .

حتى النظم الصينية التى ألزمت الرجل بالزواج من امرأة واحدة.. فان هذه النظم وان منعته من تعدد زوجاته ، فانها أباحت له أن يعدد من يتسرى بهن ، وأباحت له أن يستولدهن على أنه ليس من حق هؤلاء السرارى أن ينسب اليهن من يلدن ، انهن وان كن خليلات الرجل ، الا أنهن فى منزلة للخدمة والتمتع ، أما من يجئن به من الأطفال فانه ينسب لزوجة الرجل لا ان أنجبت من السرارى . فالزوجة الشرعيـة فقط هى صاحبة الحق فى نسبة الأبناء اليها دون سواها من الخليلات.. هذا بالنسبة لبعض النظم الصينية التى قضت بمنع اباحة تعـــدد الزوجات .

وهى نظم لا تخالف ما عليه الآن كثيرا من دول الغرب التى تمنع التعدد الشرعى ، وتتيح المخادنة والسلوك غير الشرعى.بل وصل الأمر ببعض الدول العربية ــ للأسف الشديد ــ أنها لا تسمح للرجل المسلم أن يدخل أحد فنادقها ومعه زوجتين شرعيتين وان كانت تسمح له ولغيره أن يكرم فى منازلها وفنادقها اذا دخلها ومعه عدد من الخليلات .... اللهم لاحول ولا قوة الا بك .

أما الغالب على باقى النظم الصينية القديمة فهو اباحة تعـدد الزوجـات .

فقد ذكر بعض المؤرخين أن احـدى الشرائع الصـينية القديمة ويطلق عليها « شريعة ليكى » قـد سـمحت للرجل بأن يجمع بين مائة وثلاثين امرأة .

كما يذكر هؤلاء أن الامبراطور الصينى « كن » وهو آخر ملوك عائلة « بو » قد جمع فى قصره نحو ثلاثين ألف امرأة ...

وكم كانت النساء الصينيات يقدمن أنفسهن فداء لمن يحببن من الرجـــال .

هذا فى الوقت الذى يرى فيه قانون مانو : أن النساء باب جهنم ، ويزيد عليه البعض : ان أجسامهن شيطانية ، ولذلك حسبت شـــهوة النساء شر الموبقات ، واعتبرت الطهارة مثل الحيـاة الأعلى ، فكانوا يصورون الشيطان فى حسناء تزور الصوامع ، لاســقاط نســاكها فى الخطيئـــة(١) .

كما جاء فى الكتب الصينية الكثير الذى يسىء للمرأة الصينية ويصرح بقبح النساء ، ومن ذلك على سبيل المثال :

اذا كانت المرأة فتية فهى الهة ، واذا شاخت مسخت قردا .

لا يعد ناب الأفعى وحمة الزنبور شيئا فى جنب السم الذى فى قلب المرأة .

لا يجوز للنساء أن يتعرضن لشئون الحكومة .

قد ترقى المرأة الى المناصب الرفيعة ، ولكنها لا تزال امرأة .

كما جاء على لسان واحد من العلماء الصينيين فى القرن السادس الميلادى فى كتابه الذى أسماه « وصايا للعائلات » :

لتهتم الزوجة بطبخ الطعام وتدبير الشراب واللباس ، ولا تتعرض

---

(١) تراجع مجلة الاخاء ٥/ ص ٣٢٢ وما بعدها .

لشئون الحكومة ، ولا لشئون العائلة ، فاذا كانت حاذقة مطلعة على العادات القديمة والحديثة ، فلتساعد زوجها ولتسد نقصه ولتحذر أن تملأ الكون صياحا عند الفجر كصياح الديك ، فان ذلك يجر النكد والغم(١) .

والمرأة الصينية تنتقل الى بيت زوجها وبذا تسمى باسم الزوج بعد أن كانت تسمى باسم أبيها ، فكان اسمها قرين من تقوم على خدمته وتتفانى فى ارضائه ، وليس تفانيها فى الخدمة مقصورا على زوجها وانما يتعداه الى أهله وذويه ، وعلى وجه الخصوص والديه ، الذين يصبح لهما عليها ما كان لوالديها قبل زواجها

وهى وان بذلت هذا كله ويزيد فانها لا تنتظر مقابلا ، وليس لها ما يضمن حمايتها عند الحاجة ، فهى عرضة للطلاق وقتما يشاء الرجل ولأى سبب من الأسباب أو حتى من غير سبب ، اذ أن الشرائع الصينية قد أوردت أسبابا يحق لزوجها طلاقها بمقتضاها ، ومن بين هذه الأسباب التى أوردتها النظم الصينية ، أسباب لا تقع تحت ضابط معين ، وانما ميزاتها وتقديرها راجع الى الرجل ومزاجه ، ومن هذه الأسباب على سبيل المثال : سوء تصرفها مع حميها وحماتها ، لها الله هذه المسكينة ، فمن الحموات من لا يرضهن شىء ، وعلى حد قول الريف المصرى : لا يعجبهن العجب ، ولا الصيام فى رجب .

ان أمر طلاق المرأة الصينية منوط بارضاء حماتها ، أمر غاية فى

---

(١) يراجع فيما سبق مجلة المقتطف ٥٧/٣٠ ـ ٦٢ نقلا عن عمر كحالة المرأة فى القديم والحديث ص١٥١ وما بعدها .

الخطورة ، اذ هو فى بعض الأحيان بل فى أغلبها قد عاد من رابع الأشياء التى يعد وجودها مستحيلا(١) ٠

كما جعلوا من بين الأسباب التى تبيح للرجل الصينى أن يطلق زوجه الحسد والثرثرة ، وكيف لها أن تثبت ما يمكن أن يدعى عليها من اتصافها بها أو بأحدها ٠٠٠

ومن هذه الأسباب أيضا أن تكون الزوجة عقيما ٠٠٠٠

واذا كانت عقيما فما ذنبها حتى تطلق لهذا السبب الذى ليس لها أمر فيه أو يد فى دفعه(٢) ٠٠٠

من هذا وغيره نجد أن وضع المرأة الصينية مع قوانين بلادها وضع لا تحسد عليه وحالها حال الضياع والخسران ٠٠٠٠

---

(١) الأشياء التى قال عنها العرب ان وجودها مستحيل هى الغول ، والعنقاء ، والخل الوفى ٠

وبذا يضاف اليها رابعها وهو رضاء الحماة عن زوجة ابنها ٠

(٢) قد ارجعت بعض النظم الصينية سبب الاسباب التى يتيح للرجل طلاق زوجته من غير أن يلام أو يجب لها حياله حقوق الى اسباب سبعة وهى : سوء تصرفها مع حميها وحماتها ، والعقم ، والزنى ، والحسد ، والاصابة بداء عياء ، والثرثرة والسرقة ، وأضيف الى ذلك اذا كانت غيورة ٠

وقد أوردت هذه النظم بعض الاستثناءات على هذه الحالات المذكورة ، فجعلت أنه ليس من الجائز تطليقها اذا لم يكن لها منزلا تأوى اليه ، أو كانت قد لبست الحداد مرتين كل مرة ثلاث سنوات على حم أو حماة ، أو كان زوجها فقيرا فاصبح غنيا ٠

من هنا كانوا يطلقون على المرأة المتزوجة اسم « فو » وهـذه الكلمة تعنى الخضوع ، أى خضوعها لزوجها ، اذ هى بمجرد أن أصبحت زوجة قد غدت خاضعة لهذا الزوج بكل ما فى الخضوع من معنى (١) .

ومع هذا كله فان بوذا ينصح أتباعه ومواطنيه بالابتعاد عن المرأة فخير للرجل أن يعيش من غير زواج عن أن يتزوج امـرأة تسبب له الخطر والشر ، فقد جاء فى أقوال بوذا : ان الرجل العاقل من يتحاشى الحياة الزوجية كأنها جمرة مشتعلة .

كما يقول بوذا : ان الحياة الزوجية ملأى بالمصاعب والشهوات ، فكيف للرجل الذى يعيش حياة زوجية أن يعيش حياة طاهرة رفيعة(٢) .

---

(١) جاء فى بعض الـكتب الصينية القديمة التى الفت فى القـرن الأول الميلادى ، كتاب الفته امرأة واسمته « نصائح للنساء » قدمت فيه لبنى جنسها نصائح يجب عليهن أن يتحلين بهـا وان يلتزمنهـا : ومن نصـائحها لهن قولها : كن خاضـعات ، محتشمـات وقدمن الغير على أنفسكن ، ولا تفخرن بما تصبن من النجاح ، ولاتعتذرن عن قصوركن ، واحتملن الاهانة ... وكن دائما كمن فى خوف ورعدة ، والواجب على الزوجة أن تكون صدى زوجها ، وأتبع له من ظله .

يراجع عمر كحالة المرجع السابق ص ١٥٠ .

(٢) وقد ذكرت مجلة الاخاء ٣٢٢/٥ وما بعـدها أن حظ النسـاء فى البوذية لـم يكن باحسن مما كان عليه فى المانوية فى الهنـد ، وان البوذية كان من الممكن أن تسعفهن لولا سرعة تدهورها وفساد تعاليمها ، بل ربما كانت ضعتهن من أسـباب سـقوط البوذية ، فان الامبراطور « سوكا » قد أمر سنة ٢٦٤ق.م بثقافتهن توسلا بذلك الى تطهير البوذية .

كما جاء فى البلاغ الاسـبوعى عدد ٩ فبراير سنة ١٩٣٠م : أن ماجاء فى حق المرأة فى الديانة البوذية عبارة عن مقتطفات واقوال وتعاليم

وهذه نظـرة الصينيين للمـرأة انها مخلوق ليس له فى الحـرية أو الاختيار نظرا لطبيعته وتكوينه المزوج بالشيطانية .

ومن هنا كانت تربيتهم للبنت تربية تجعلها تنظر للرجـل على أنه الغاية العظمى لها ولذا فانها يجب عليها أن تقدم كل شىء للوصول اليه وارضـائه ...

وقد شهدت بداية القرن العشرين حركات نسائية فى الصين تطالب للمرأة ببعض الحقوق .

وتقدمت النساء الى البرلمان بشكوى عام ١٩٢٢م يطالبن فيهـا بفتح المدارس لتعليم البنات ، ومراجعة القوانين الخاصة بعلاقة الزوج بالزوجة والأم والابن وخصوصا فيما يتصل بحق الميراث .

ـ وأن يوجد نظام جديد للزواج يكون للمرأة فى ظله حقوق مثل الرجل .

ـ وأن يمنع البغاء الرسمى ، واستعباد البنات وخرق القدمين .

وأن يمنحن أجرا مساويا لأجر الرجل ما دمن يعملن مثله ..

=

بوذا ، أما أقواله بخصوص النسـاء فليست بالكثيرة ، وهـو ينصح الرهبان بالابتعاد عنهن .

كما تراجع مجلة المقتطف ٤١ ص ٥٥٨ وما بعدها .

مجلة المرأة المصرية سنة ١٩٢٥ ص ١٠ .

مجلة الصور المصرية سنة ١٩٢٥ عدد ٨٢ .

المرأة فى القديم والحديث ص١٤٩ وما بعدها .

ومما يأتى يتضح أن القانون الذى طالبت به النساء لم يصدر بالصورة التى تحقق لهن حريتهن ومساواتهن للرجل فى الحقوق ..

اذ أن القانون قد أبقى الحال على ما هو عليه فى كثير من الأمور الأسرية وخوصا فى مسألة الزواج غير الشرعى ...

ولقد نشرت مجلة الخليج الصادرة فى دولة الامارات العربية المتحدة بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٨٨م فى الصفحة الأخيرة تحت عنوان : الصين تفرق بين الأزواج غير الشرعيين : ما يأتى :

الأزواج الصينيون الذين لا يحترمون القانون الخاص بالزواج ، ويرفضون الانفصال .. مهددون بعقوبة السجن فى معسكر عمل .

وقالت وانغ ديوى ، مديرة قسم الزواج فى وزارة الشئون المدنية الصينية : أن موجة لا سابقة لها من الزيجات « غير الشرعية » التى حدثت فى الأعوام الماضية دفعت بالسلطات الى ادخال تعديلات على قانون الزواج لعام ١٩٨١م الذى يحدد عقوبات بحق المخالفين .

ويقصد بالزيجات غير المشروعة .. تلك التى تجرى قبل سن الثانية والعشرين بالنسبة للرجال ، وقبل سن العشرين بالنسبة للنساء .

وأضافت : أن السلطات ستجبر المخالفين على الانفصال ، وسيعاقب الذين يرفضون ذلك بشدة ... وأعطت مثالا على ذلك ... السجن فى معسكرات اعادة التأهيل ، فضلا عن غرامة مالية .

وقالت ان تسعين فى المائة من الأزواج فى بعض المناطق الريفية يعيشون معا بصورة غير مشروعة ...

وأشارت الى أنه يجرى احصاء ستة ملايين صينى فى هذا الوضع

العام الماضى وتأتى هذه الاجراءات فى أعقاب فشل سياسة انجاب الأطفال واحدا لكل عائلة ...

ويذكر أن الزواج فى الصين يلزمه موافقة من المسئولين عن التخطيط العائلى فى المؤسسات الحكومية ...

وقد درج الموظفون المحليون على فرض وكفالة مالية على المتزوجين حديثا تتم مصادرتها اذا أنجب الزوجان أكثر من طفل واحد .

ولا أجد ما أختم به حديثى عن المرأة الصينية سوى هذه الفقرة الاخبارية التى نشرتها هذه الصحيفة والتى نقلتها عن الصحف الصينية ، فالصفحة الأخيرة من جريدة الخليج تورد أغرب ما نشرته الصحف العالمية من حوادث وقضايا وأخبار ...

انها فعلا قضية المرأة الصينية ، وهذا من أغرب أخبارها فى نهاية القرن العشرين ، انها زوجة غير شرعية .... كما أنها لا حق لهـا فى الانجاب أكثر من طفل واحد ... انها امرأة معذبة ...

قديما طلقوها اذا لم تنجب ....

وحديثا عاقبوها اذا هى أنجبت أكثر ن طفل ...

وهى ضائعة بين الشرعية وعدم الشرعية فى الصين .

الفرع الثالث المرأة فى التبيت

التبيت منطقة بين الهند والصين أو ان شئت فقل أنها المنطقة التى تفصل الهند عن الصين وتقع فى شمال جبال الهملايا •

وهذه المنطقة تكاد تكون ذات أعراف خاصة وديانات مغايرة لما فى كل من الهند والصين •

فالديانة المطلقة هناك ديانة الدالاى وهو عندهم الاله صاحب الكلمة المطاعة ، أو هو ظل الاله فى الأرض ، وهو فى مكان لا يراه الا الخاصة، الذى لابد وأن يمروا باختبارات كثيرة حتى يسمح لهم برؤيته أو محادثته •

ورجال الدين هناك يطلق عليهم اسم «لاما» فالدالاى لاما هو كبير رجال الدين ، أو هو الكاهن الأكبر ، ان لم نقل عليه أنهم يعدونه الاها •

والدالاى هذا يفرض على رجال دينه وسدنته عدم زواجهم فلابد لمن يطلق عليه « لاما » أن يظل أعزبا حتى يستحق أن يكون راهبا ويطلق عليه « لاما » أى رجل الدين •

وهؤلاء وحدهم هم أصحاب السلطة فى بلاد التبيت على كل شىء وخصوصا المرأة ، فالمرأة هناك تتحكم فى الجميع ورجال الدين هناك هم الذين يتحكمون فيها فلا تستطيع أن تعصى لهم أمرا أو ترفض لهم مطلبا •

والمرأة فى بلاد التبيت تغاير تماما المرأة فى كل شبه القارة الهندية وفى بلاد الصين •

فالمرأة فى التبيت هى صاحبة الكلمة المطاعة والرأى المسموع ، وليس لأحد من الرجال هناك ارادة تعارض ارادة المرأة •

فهى صاحبة القرار فى زواجها ، اذ هى التى تختار من ستتزوجه من الرجال فاذا راقها رجل أرسلت تطلبه من أمه •

فليس للرجل أى سلطة هناك بالنسبة لأبنائه أو قل أبناء زوجته ، فانهم وان سموا باسمه وانتسبوا له فى الظاهر،الا أنهم لا يعرفون ان كان هو أبوهم فى الحقيقة والواقع،أم أنهم أبناء رجل آخر ممن تزوجتهم المرأة التى أنجبت ، وكانوا جميعا أزواجها فى وقت واحد •

من هنا فان الكلمة للأم بعد كلمة المرأة التى تأتى لتخطب الفتى لتتزوجه وعند الزواج تقوم هذه الزوجة لترغم زوجها على أن يقسم لها يمين هو يمين الطاعة لها وعدم الخروج عن سلطتها وارادتها •

فاذا حاول هذا الزوج الخروج عن ارادة امرأته أو خيانتها فانها تنزل به أشد ألوان العقاب •

ومن هنـــا فانه ليس من حقه أن ينظر الى امرأة أخرى أو يبـــدى اعجابه بغير زوجته ، مجرد ابداء اعجابه بأخرى جريمة ، فما بالك لو تزوج بامرأة أخرى،انها الخيانة ، فاذا خطبته أخرى ورغبت فيه فلابد أن تذهب الى زوجته ، فان قبلت التنازل لها عنه تزوجته المرأة الجديدة ، والا فالعقوبة له والويل •••

ومن عجب أن النساء هناك هن اللائى يعددن الأزواج وهذا حقهن دون الرجال •

فالمرأة من حقها أن تختار ما تشاء من الرجال ليكونوا أزواجا لهـــا تجمع بينـــهم أربعة أزواج أو أكثر،تجمع بينهم فى وقت واحد،وعلى هذا فان المولود الذى يأتى يسمى باسم أمه ، لأنها هى الوحيدة أمه على التأكيد أما أبوه فغير معروف على وجه التحديد •

فالرجل هناك مســـلوب الارادة ، لا حق له فى بيته أو قل فى بيت زوجته ، لا حق له سوى القيام بأعمال البيت بل والعمل أيضـــا خـــارج

البيت والمرأة سيدة تجلس لاستقبال من يأتى الى بيتها من الرجال أو النساء ، لزيارتها أو الحديث معها فى شئون الحياة أو الدولة وما الى ذلك ....

وهى صاحبة السلطة تحاسب من تشاء من رجالها أو أزواجها،وليس عليهم ولا لهم سوى السمع والطاعة .

هذا هو حال الرجل فى بلاد التبيت ، فى ظل الدالاى لاما ، صاحب الكلمة هناك وهو وكهانه ، باسم الدين ، أى دين هذا الذى يخالف طبيعة الخلقة ... وأى رجـال هؤلاء الذين تجمع بينهن امرأة واحدة وكلهم أزواج فى عصمتها وتحت سلطانها ...

لقد تحركت فى رجال التبيت نخوة رجولة هبت على بلادهم ممن جاورهم فقامت ثورة عسكرية عام ١٩٣٠ تطالب النساء الاعترافبحقوق الرجال ... وتهيب بالمرأة هناك أن تعامل الرجل على أساس أنه مخلوق بشرى مثل النساء ، له ما لهن من حقوق ....

لكن النسـاء المتحجبات هناك ، صاحبات القلوب الصلدة المتجبرة لا ترحم الرجال ولا تستجيب لحقوقهم أو مطالبهم .

انهن يقلن أن الآلهة قد خلقت الرجل ناقصا فى كل أعماله وأموره وعقله وعليه أن يخضع طوال حياته للمرأة ، فالمرأة قد خلقتهـا الآلهة لتكون سيدة الكون ....

ان الاله هناك تستهويه المرأة ورجاله وكهنته هم الذين لهم حق الكلمة على المرأة ، ويستقبلونها فى الأديرة .... وهم لا حق لهم فى الزواج .... ولا يدخل الأديرة الا النساء .. أما الرجال فلا حق لهم أيضا فى دخول الأديرة ...

الأمر الذى ابرزه « آموكى » زعيم حركة الرجـال فى المطـالبة بحقوقهم وطلب مساواتهم بالنساء (١) .

وفى نهاية المطاف ، ولما لم يجد الرجال مفرا فى ظل الكهنة « لاما » أصحاب المصلحة هم والنساء ... رفع الرجال شـكواهم الى كل من الصين والهند علهم يجدون منصفا ... ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ...

---

(١) تراجع مجلة روز اليوسف العدد ١٥٤ سنة ١٩٣٠م :
عمر كحاله المرآة فى القديم والحديث ص ١٦١ وما بعدها :

obeikandl.com